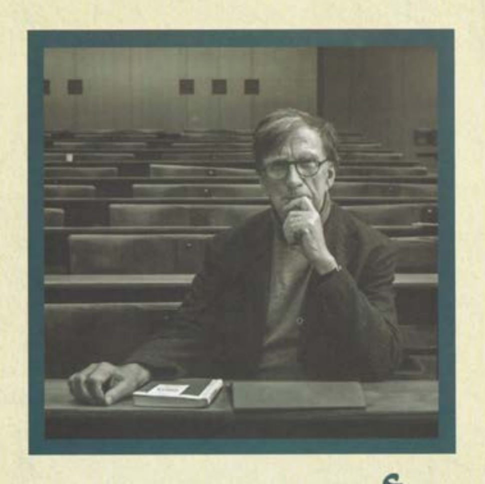


بر ونو لاتور



أين نرسو؟

محاولة للعثور على البوصلة السياسة

ترجمة

نزار آغري

داليا السجيني

أين نرسو؟

*

INSTITUT FRANÇAIS
Egypte

«Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français»

أين نرسو؟

محاولة للعثور على البوصلة السياسية

الطبعة الأولى: 2020

رقم الإيداع: 2019 / 22012

الترقيم الدولي: 4- 116 -803 -977 -978

الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة.

تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+

بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



برونو لاتور

أين نرسو؟
محاولة للعثور على البوصلة السياسية

ترجمة عن الفرنسية

نزار آغري

داليا السجيني





فهرسه أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

لاتور، برونو
أين نرسو : تأليف : برونو لاتور.– ط١.– القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠
١٦٧ ص ، ١٨ سم
تدمك : 4-116- 803 - 977 - 978
١ـ سياسة – اجتماع ـ بيئة
أ. العنوان
ب. آغري، نزار – السجيني، داليا (مترجمًا)
رقم الإيداع : 22012 الطبعة الأولى ٢٠٢٠

لقد قرأنا ما يكفي من الكتب

جارد كوشنر[1]

١

الغاية الوحيدة لهذه الدراسة هي انتهاز فرصة انتخاب دونالد ترامب، في الحادي عشر من نوفمبر ٢٠١٦، من أجل الربط بين ثلاث ظواهر سبق وأن رصدها المحللون، غير أنهم لم يروا دومًا القاسم المشترك بينها، ومن ثَمَّ لم يتسن لهم رؤية الطاقة السياسية العظيمة التي يمكن استخلاصها من تلك المقاربة.

في بداية التسعينيّات، مباشرةً بعد "الانتصار على الشيوعية" متمثلاً في سقوط جدار برلين، وفي اللحظة التي ظن فيها الكثيرون أن مسار التاريخ قد انتهى[٢]، بدأ تاريخٌ آخر مسيرته خلسةً.

تميز هذا التاريخ قبل كل شيء بما يُسمى "إزالة الضوابط التنظيمية"، وهو ما سيسبغ على كلمة "العولمة" «Globalisation» بشكلٍ متزايد معنًى سلبيًا؛ ولكن ذلك التاريخ يشكل أيضًا، وفي كل البلدان في آنٍ واحد، بداية انفجار ما انفك يتعاظم لمظاهر اللامساواة؛ وأخيرًا ثمة أمر غالبًا لا يُسلط الضوء عليه، وهو أنه في تلك الفترة بدأ العمل المنظم لماكينة إنكار وجود التبدل المناخي. (يُستعمل "المناخ" هنا

بمعناه الواسع بوصفه علاقات البشر بالظروف المادية المحيطة بوجودهم).

تقترح هذه الدراسة اعتبار هذه الظواهر الثلاث أعراضًا لوضع تاريخي واحد: يجري كل شيء وكأن جزءًا كبيرًا من الطبقات الحاكمة (وهي ما يُطلق عليها اليوم وبشكل غامض للغاية اسم "النخبة") قد وصلت إلى استنتاج مفاده استحالة وجود مكان على الأرض كافٍ للعيش المشترك لها ولبقية سكان الكوكب.

لذلك، قررت تلك الطبقات الحاكمة أنه لم يعد مفيدًا التظاهر بأن التاريخ سيواصل التقدم نحو أفقٍ مشترك؛ حيث يستطيع "جميع الناس" أن ينعموا بالرخاء. منذ الثمانينيّات، بدأت الطبقات الحاكمة في الزعم بأنها لا تحكم بل تقي نفسها من الآخرين. وفي هذا الإطار، وحيث لا يُعتبر دونالد ترامب سوى نموذج، فإننا نشهد الآثار المجنونة لغياب عالم مشترك يمكن أن نتقاسم العيش فيه.

ثمة فرضية تقول بأننا لن نستوعب شيئًا من المواقف السياسية منذ خمسين عامًا ما لم نعطِ مكانة مركزية لمسألة المناخ، وما تتعرض له من إنكار. لو رفضنا فكرة أننا على عتبة نظام مناخي جديد [٣]، فلن نتمكن من فهم مسألة تفاقم اللامساواة، ولا اتساع نطاق إزالة الضوابط التنظيمية، ولا نقد العولمة، ولا على وجه الخصوص الرغبة المذعورة في العودة إلى

الدفاع القديم عن الدولة الوطنية ـ وهو ما يُسمى، خطأً، "صعود الشعبوية".

من أجل التصدي لغياب توجه مشترك، لا بد أن نجد أولاً مكانًا نرسو فيه. من هنا تنبع أهمية معرفة كيفية البحث عن توجه. يقتضي الأمر إذًا رسم ما يشبه خارطة طريق للمواقف التي يفرزها المشهد الجديد؛ حيث تتم إعادة تعريف ليس الآثار المترتبة على الحياة العامة فحسب، بل وتحدياتها أيضًا.

تسعى التأملات التالية، المكتوبة عمدًا بأسلوبٍ فظ، إلى استكشاف ما إذا كان من الممكن توجيه بعض الانفعالات السياسية نحو أهداف جديدة.

ليس في وسع كاتب هذه السطور، الذي لا يملك أي سلطة في مجال العلوم السياسية، سوى إتاحة الفرصة للقراء لتبين قصور هذه الفرضية والبحث عن فرضيات أفضل منها.



٢

ينبغي أن نشكر أنصار دونالد ترامب لقيامهم بشرح هذه القضايا له، دافعين إياه للانسحاب من اتفاقية باريس للمناخ، في الأول من يونيو ٢٠١٧.

ما عجز عن تحقيقه نضال الملايين من أنصار البيئة، وتحذيرات الآلاف من العلماء، وتحركات المئات من الصناعيين، وما فشل حتى البابا فرانسوا في جذب الانتباه إليه [٤]، استطاع ترامب تحقيقه: أدرك العالم برمته الآن أن القضية البيئية تقع في صلب الصراعات الجيوسياسية وأنها مرتبطة بشكل مباشر بمسألة اللامساواة وغياب العدالة [٥].

بانسحابه من الاتفاقية، فإنه أشعل أخيرًا وبشكل صريح، إن لم تكن حربًا عالمية، فعلى الأقل معركة حول تحديد مسرح العمليات: "نحن الأمريكيون، لا ننتمي إلى نفس الأرض التي تنتمون إليها. قد تكون أرضكم معرضة للتهديد، أما أرضنا فلن تكون كذلك"!

وهكذا فقد ظهرت التبعات السياسية وقريبًا العسكرية، على أي حال الوجودية، لِما كان بوش الأب قد تنبأ به عام ١٩٩٢ في ريو: "أسلوب عيشنا ليس قابلاً للتفاوض"! ها هي الأمور أصبحت على الأقل واضحة: لم يعد هناك نموذج مثالي لعالم يتقاسمه ما كان يُسمى حتى ذلك الحين بـ "الغرب".

الحدث التاريخي الأول: "البريكزيت" «Brexit». البلد الذي كان قد أوجد الفضاء اللامحدود للسوق في البر والبحر على السواء؛ البلد الذي لم يتوقف عن تحويل الاتحاد الأوربي إلى متجر كبير، هذا البلد نفسه الذي قرر فجأة، وقبل تدفق مئات الآلاف من اللاجئين، أن يخرج من لعبة العولمة. في بحثه عن إمبراطورية مفقودة منذ زمن طويل، قرر هذا البلد أن

ينسحب من أوربا (مع ما يتمخض عن ذلك من صعوبات ما تنفك تزداد يومًا بعد يوم).

الحدث التاريخي الثاني: انتخاب ترامب. البلد الذي كان قد فرض على العالم عولمته الخاصة، وبالعنف؛ البلد الذي تشكل من المهاجرين على حساب السكان الأصليين، ذلك البلد يربط مصيره بشخص يعد بأن يعزله داخل قلعة حصينة، وأن يمنع قدوم اللاجئين، وأن يكف عن دعم أي قضية لا تخدم مصلحته، دون أن يتوقف عن الاستمرار في التدخل في أي مكان من العالم بنفس الحماقة.

هذا النزوع الجديد إلى التشبث بالحدود من قِبَل من كانوا يدعون إلى إزالتها بشكل منهجي إنما يشير إلى نهاية مفهوم معين للعولمة. اثنان من أكبر بلدان "العالم الحر" القديم يقولان للآخرين: "لم يعد لتاريخنا شأن بتاريخكم، اذهبوا إلى الجحيم"!

الحدث التاريخي الثالث: الانتعاش الاقتصادي، التوسع، تعاظم الهجرات. في الوقت نفسه الذي يواجه فيه كل بلد التهديدات المتنوعة للعولمة، فإن بلدانًا كثيرة تتعاون لتنظيم استقبال الملايين من الناس على أراضيها [٦] ـ هؤلاء الذين أجبرتهم الحروب المتعاقبة وفشل النمو الاقتصادي والتبدلات المناخية على البحث عن أرض جديدة للعيش لهم ولأبنائهم.

سيقال إن هذه مسألة قديمة؟ لا، لأن هذه الظواهر الثلاث ليست سوى جوانب مختلفة لتحوُّل واحد: ألا وهو أن مفهوم الأرض ذاته آخذ حاليًا في تغيير طبيعته. الأرض الموعودة للعولمة في

طريقها إلى الاختفاء. هذا هو الأمر الجديد فيما يطلق عليه بحياء اسم "أزمة المهاجرين".

والسبب الذي يدعو إلى القلق هو أن كل واحد منا بدأ يشعر بالأرض تهتز تحت قدميه. ما يلوح لنا بغموض، إلى هذا الحد أو ذاك، هو بأننا كلنا مهاجرون نمضي نحو أراضٍ جديدة لإعادة كشفها واستيطانها.

ثمة حدث تاريخي رابع، وهو الأهم والأقل عرضة للنقاش: الثاني عشر من ديسمبر ٢٠١٥، في باريس، لحظة التوقيع على اتفاقية المناخ، في نهاية المؤتمر المعروف بـ COP21[1].

الأثر الحقيقي لهذا المؤتمر لا يكمن في ما اتفق عليه المندوبون، ولا حتى في ما إذا كان هذا الاتفاق سيطبق أم لا (سيبذل الرافضون كل جهدهم للتنصل منه)؛ لا، المهم في الأمر هو أن البلدان الموقعة على الاتفاق أدركت في ذلك اليوم، وفي اللحظة التي كان مندوبوها يصفقون لنجاح الاجتماع، أنها إذا مضت قدمًا إلى الأمام وفقًا لخطط التحديث الخاصة بكل بلد، فلن يبقى ثمة كوكب يمكن لها أن تطبق عليه خططها في التطور [٧]. سيلزمها أكثر من كوكب؛ وليس أمامها سوى كوكب واحد.

---

١ يشير COP٢١ إلى المؤتمر الحادي والعشرين للتغييرات المناخية الذي عُقد بالأمم المتحدة في ديسمبر ٢٠١٥، وهو اختصار لاسمه باللغة الإنجليزية: Conference Of the Parties.

غير أنه إذا لم يكن هناك كوكب، أرض، مساحات، يمكن أن تطبق فيها لعبة العولمة التي تتجه نحوها كل البلدان، فلن تبقى بقعة أرض "خاصة" لأحد.

يجد كل واحد منا نفسه أمام السؤال التالي: "هل نستمر في الهروب إلى الأمام أم نبدأ في البحث عن أرض صالحة للسكن لنا ولأبنائنا"؟

إما أن نتجاهل وجود المشكلة أو نحاول العثور على موطئ أقدامنا على الأرض. هذا هو السؤال الذي يفصل بيننا منذ الآن وليس إثباتَ ما إذا كنا يمينيين أم يساريين.

يصح هذا القول سواء بالنسبة لساكني البلدان الغنية القدماء أم لسكانها المستقبلين. الأولون لأنهم يدركون أن ليس ثمة كوكب مؤهل للعولمة وسيتعين عليهم تغيير طرائق عيشهم برمتها؛ والأخيرون لأنه يتحتم عليهم أن يتركوا أرضهم التالفة ويتعلموا، هم أيضًا، تغيير كل طرائق عيشهم.

بعبارة أخرى، لقد انتشرت أزمة المهاجرين.

هنالك المهاجرون القادمون من الخارج الذي يجتازون الحدود ويتعرضون لمآسيَ فظيعة وهم يغادرون أوطانهم. يجب من الآن فصاعدًا أن نضيف إلى هؤلاء مهاجري الداخل الذي يتعرضون ـوهم في أرضهمـ إلى مأساة الشعور بأن بلدهم يتركهم ويغادرهم. ما يجعل أزمة المهاجرين عصية على الفهم هو أنها مجرد عارض من الأعراض، المؤلمة إلى هذا الحد أو ذاك، لمحنة يعاني منها الجميع: محنة الحرمان من الأرض.

هذه المحنة هي التي تفسر اللامبالاة النسبية إزاء الوضع الطارئ، وكيف أننا نجد أنفسنا جميعًا مهدَئين مناخيًّا حين نردد، دون أن نفعل شيئًا، أن "كل شيء سينتهي على خير...". لا يمكن أن نتهرب من السؤال عن الأثر الذي تتركه على حالتنا العقلية الأخبار التي ترِد إلى مسامعنا كل يوم عن وضع الكوكب. كيف يمكن لنا أن نتجنب التعرض للإنهاك الداخلي حين يفترسنا القلق من عجزنا على تحري الجواب؟

إن هذا القلق الشخصي والجمعي هو الذي يضفي الأهمية على انتخاب ترامب ـالذي لولا ذلكـ لما كان انتخابه سيبدو سوى كسيناريو لمسلسل تلفزيوني رديء.

هناك خياران أمام الولايات المتحدة: إدراك عظمة مسؤوليتها، والتصرف بشكل واقعي بإخراج "العالم الحر" من الهاوية، أو الاستمرار في الإنكار. لقد قرر أولئك الذين يختبئون خلف ترامب أن يستمروا سنوات أخرى وهم يحلمون بجر أميركا ومعها البلدان الأخرى إلى الهاوية ـ ربما إلى الأبد.

٣

لم تفرض هذه المسألة نفسها حتى الآن على الشعوب التي كانت قد قررت أن "تُحَدِّث" الكوكب. لم تطرح نفسها، كم هو أمر مؤلم! إلا على أولئك الذين عاصروا منذ أربعة قرون آثار "الكشوفات الكبرى"، الإمبراطوريات، التحديث، التطوير،

وأخيرًا العولمة «Globalisation». أولئك يعرفون بدقة ماذا يعني الحرمان من الأرض. بل إنهم يعرفون جيدًا ماذا يعني الطرد من الأرض. لقد أصبحوا، بالقوة، خبراء في البقاء رغم الغزو والإبادة ومصادرة الأرض.

الشيء الجديد بالنسبة لهذه الشعوب المُحَدَّثَة هو أن هذه المسألة تفرض نفسها عليهم، كما تفرضه على الآخرين. قد يكون الهجوم أقل دموية، أقل وحشية، أقل توقعًا، ربما، غير أنه عنيف للغاية من أجل تجريد الناس من الأرض التي كانوا يملكونها حتى الآن، وفي غالب الأحيان كانوا قد استولوا عليها من آخرين في خضم حروب وغزوات.

هذا ما يضفي على مصطلح "ما بعد الكولونيالية" معنًى غير متوقع، كما لو كانت هناك مسحة عائلية بين شعورين بالفقد: "هل فقدتم أرضكم؟ هل أخذناها منكم؟ فلتعلموا أننا بدورنا على وشك فقدانها..." وهكذا، فمع غياب شعور بالإخاء بين الطرفين، ينشأ بطريقةٍ غريبة محل النزاع الكلاسيكي شيء مثل رابطة جديدة: "ماذا فعلتم من أجل المقاومة والبقاء؟ سيكون شيئًا جيدًا أن نتعلم منكم نحن أيضًا" (٨). الرد الساخر على هذا السؤال هو: "أهلاً بكم بين صفوفنا"!

بعبارة أخرى، فإن الشعور بالدوار، بل بالذعر، الذي يسري في السياسة المعاصرة ينبع من أن الأرض تهتز تحت أقدام العالم كله دفعة واحدة، كما لو أن هجومًا شاملاً يُشن على كل ما يملك.

هل لاحظتم الاختلاف بين الانفعالات التي تنتابكم في حال لو طُلب منكم الدفاع عن الطبيعة ستعبرون عن تبرمكم بالتثاؤب ـوتلك التي تنتابكم لو طُلب منكم الدفاع عن أرضكمـ ستنتفضون على الفور؟

إذا كانت الطبيعة قد صارت الأرض، فليس ثمة معنى من الحديث عن "أزمة بيئية" أو عن "مشاكل البيئة"، أو عن مسألة "غلاف الأرض الحيوي" الذي يتعين استعادة توازنه، إنقاذه، وحمايته. فالموضوع أكثر حيوية ووجودية ـ وأيضًا أكثر قابلية للفهم لأنه مباشر بصورة أكبر. عندما يسحب أحدهم البساط من تحت أقدامكم، فإنكم تدركون فورًا بأن من الضروري الاهتمام بالأرضية...

إنها مسألة مرتبطة بالتعلق، بنمط الحياة التي يحاولون حرماننا منها، بالأرض، بالأملاك التي تتوارى من تحت أقدامنا. وهذا القلق يلف العالم كله، القوى الاستعمارية السابقة والشعوب التي خضعت للاستعمار سابقًا على حد سواء. لا! إن فزع القوى الاستعمارية السابقة، التي لم تَعْتَدْ على ظرف مماثل، يفوق فزع الشعوب التي خضعت للاستعمار في الماضي. المؤكد هو أن الجميع يجد نفسه أمام معضلة تقلص عالمي لفضاء مشترك ولأرض قابلة للعيش.

ولكن ما سبب الرعب؟ سببه هذا الشعور العميق بغياب العدالة الذي ينتاب هؤلاء الذين جُردوا من أرضهم في الغزوات، ومن ثَم في حملات الاستعمار، وأخيرًا في مرحلة

"النمو": هناك قوة خارجية تريد الاستيلاء على أرضكم، وليس في مقدوركم مقاومتها. إذا كانت هذه هي العولمة فإننا نفهم لماذا كانت مقاومتها هي على الدوام الحل الوحيد، نفهم لماذا كانت المستعمرات على حق دومًا في الدفاع عن نفسها.

تلك هي الطريقة الجديدة التي يمكن أن نقارب بها الوضع الإنساني العالمي، صحيح أنها عالميّة «Universalité» تتسم بالانحراف (عالميّة خبيثة)، ولكنها العالميّة الوحيدة التي نملكها الآن وقد بدت سابقتها: أي العولمة «Globalisation»، تغيب عن الأفق. العالميّة الجديدة هي الإحساس بأن الأرض تتقلص.

أليست كافية لخلق التفاهم والحيلولة دون اندلاع حروب مستقبلية للاستحواذ على الفضاء؟ قد لا تكون كذلك، ولكنها الخيار الوحيد المتاح لنا: التعرف بشكل جماعي على الأرض التي يمكن الاستقرار فيها، وعلى من يشاطروننا العيش عليها.

الجزء الآخر من هذا الخيار هو التظاهر بعدم حدوث أي شيء والتمترس خلف جدار لإطالة أمد حُلم "العيش على الطريقة الأميركية" التي يعرف الجميع أنه لن يكون في وسع تسعة أو عشرة مليارات من البشر التمتع بها...

الهجرات، انفجار اللامساواة والنظام المناخي الجديد، إنه نفس التهديد. يقلل الغالبية من مواطنينا من شأن ما يهدد الأرض أو ينكرونه، لكنهم يدركون تمامًا أن مشكلة المهاجرين تشكل خطورة على أحلامهم في التمتع بهوية مضمونة.

في الوقت الراهن، ونتيجة للجهد الذي تبذله الأحزاب "الشعبوية"، فإن هؤلاء الأقران يستوعبون بُعدًا واحدًا فقط من أبعاد التغيرات البيئية: أنها تدفع إلى الحدود بناس لا يرغبون في استقبالهم؛ من هنا يأتي الرد: "فلنُحكِم إغلاق الحدود ولنتفادى هذا التدفق"!

غير أنهم لم ينتبهوا بشكلٍ عِميق إلى البعد الآخر لتلك التغيرات: فمنذ وقتٍ طويل، يجتاح النظام المناخي الجديد كل الحدود، ويضعنا في مهب للريح، دون أن نتمكن من إقامة جدران لحمايتنا من أولئك المتدفقين.

إذا أردنا الدفاع عن انتماءاتنا، سيتوجب علينا أيضًا تحديد هذه الهجرات التي تبدو بلا شكل ولا قومية، وكذلك المناخ، والتصحر، والتلوث، ونفاد مصادر العيش، وتدمير أماكن الاستقرار. حتى لو أغلقتم الحدود في وجه اللاجئين الذين جاؤوا سيرًا على الأقدام، فلن تفلحوا أبدًا في منع الآخرين من عبورها.

"ولكن.. أيعني هذا أنه لم يعد أحدٌ يشعر بالأمان والاستقرار في بيته الخاص"؟

في الواقع، لا. فلا سيادة الدول ولا إحكام إغلاق الحدود قادرَيْن على أن يحلا محل التسوية السياسة.

"ولكن كل شيء مفتوح، أيقتضي العيش في الخارج، دون أي حماية، أن يجد المرء نفسه مكشوفًا للريح، مختلطًا بالناس أجمعين، أن يخوض صراعًا للحصول على أي شيء، بدون أي

ضمانة، أن يظل متنقلاً باستمرار، فاقدًا لأي هوية، لأي وسيلة من وسائل الراحة؟ من يستطيع العيش هكذا"؟

لا أحد، هذا صحيح. لا طير، ولا خلية، لا مهاجر، ولا رأسمالي. حتى "ديوجين" «Diogène» من حقه الحصول على برميل. البدوي على خيمة؛ والمهاجر على ملاذ.

لا تصدقوا لثانيةٍ واحدة ما يقوله أولئك الذي يرفعون عقيرتهم بالصياح عن "القيام بالمخاطرة" والتخلي عن كل الحمايات، ويستمرون في توجيه أصابعهم نحو الأفق اللانهائي للحداثة من أجل الجميع. هؤلاء الكهنة الطيبون لا يقومون بأي مخاطرة إلا إذا كانت مصالحهم مضمونة. بدلاً من الإصغاء إلى ما يقولونه في وجوهكم انظروا إلى ما يفعلونه خلف ظهوركم: سترون أنهم طووا بعناية فائقة مظلاتهم التي تقيهم من كل المخاطر في الوجود.

إن الحق الأوَّليّ هو الشعور بالأمن والحماية، ولا سيما في الأوقات التي توشك فيها سبل الحماية القديمة على الاختفاء.

هذا هو المعنى التاريخي الذي ينبغي اكتشافه: كيفية إعادة بناء الروابط بين الأطراف؛ كيفية إيجاد قاعدة ثابتة مع الأخذ بعين الاعتبار نهاية العولمة «Mondialisation»، واتساع ظاهرة الهجرة، بالإضافة إلى تقلص سيادة الدول التي تواجه التحولات المناخية؟

والأكثر من هذا هو كيف نبث الطمأنينة في نفوس أولئك الذين لا يرون خلاصهم سوى في العودة إلى الهوية القومية أو

الإثنية ـ التي تعاد صياغتها من جديد على الدوام؟ علاوةً على ذلك كيف يمكن تنظيم حياة جماعية في وجه هذا التحدي الكبير المتمثل في البحث عن أرض دائمة لملايين الغرباء؟

تكمن المعضلة السياسية في طمأنة وإيواء كل من اضطروا إلى أن يسلكوا طريق الهجرة، وذلك من خلال تنبيههم إلى الحماية الزائفة التي توفرها الهويات والحدود الثابتة.

ولكن كيف يمكن طمأنتهم؟ كيف يمكن إشعار جميع المهاجرين بأنهم محميون دون الاستناد إلى هوية عرقية، أو أهلية، دون حدود ثابتة وحماية مضمونة في وجه المخاطر؟

يستلزم ذلك القدرة على دمج حركتين متكاملتين كان التحديث «Modernisation» قد جعلهما متناقضتين: أن يتمسك المرء بالأرض من جهة؛ أن يَتَعولَم «se mondialiser» من جهةٍ أخرى. حتى الآن، كانت مجريات الأمور قد جعلت عملية الدمج مستحيلة ـكما يقالـ كان ينبغي الاختيار بينهما. قد يكون التاريخ الحالي على وشك أن يضع نهاية لهذا التناقض الواضح.

٤

ماذا تعني الخسائر التي سببتها العولمة؟ أيبدو أنها مصدر كل الشرور، وأن "الشعوب" كلها قد "تمردت" عليها بفضل جهدٍ جبار جعلها "تدرك" و"ترى بأعينها" تجاوزات "النخب"؟

حان الوقت كي ننتبه إلى المفردات التي نستخدمها. داخل مفردة يُعَولِم «Globaliser» ("جلوباليزيه") توجد بالطبع أطياف كثيرة، ولكن ثمة أيضًا كلمة "كرة أرضية" «Globe» ("جلوب"): يمكن الاحتفاظ بها إن شئنا. وداخل مفردة يُعَوِلم «Mondialiser» ("موندياليزيه")، هناك الكلمة الجميلة "عالَم" «Monde» "موند"): سيكون من المحزن فعلاً التخلي عنها.

منذ خمسين عامًا، ما يُسمى بـ "عَولمة" «Globalisation» ("جلوباليسازيون": أي "كَوّكبة") أو «Mondialisation» ("موندياليزاسيون")، إنما يشير في الواقع إلى ظاهرتين متناقضتين جرى باستمرار الخلط بينهما.

كان الانتقال من وجهة نظر محليّة إلى وجهة نظر كوكبيّة أو عالميّة ينبغي أن يعني تَعدُّد وجهات النظر، إدراج عدد أكبر من الاختلافات، والأخذ بعين الاعتبار لعدد أكبر من الكائنات، من الثقافات، من الظواهر، من المنظومات ومن الناس.

ولكن يبدو أن المقصود بـ "يُعَولم" اليوم هو على النقيض تمامًا من مثل هذا النمو. يعني ذلك أن وجهة نظر واحدة، محلية تمامًا، يتبناها قليل من الأشخاص، تُمثّل عددًا محدودًا من المصالح، وتستند إلى بضعة أدوات للقياس، وعدة معايير ونماذج، قد فرضت نفسها على الجميع وانتشرت في كل مكان. ليس غريبًا إذًا أن ثمة بلبلة في ما إذا كان ينبغي تقبل العولمة أم مقاومتها.

إذا كان الأمر يتعلق بتعدد وجهات النظر من أجل إثراء كل وجهة نظر "محلية" أو "ضيقة" بتنويعات جديدة، فهذا كفاح يستحق أن يُخاض؛ أما إذا كان المقصود هو خفض عدد البدائل المطروحة للعيش ولمسار العالم، لقيمة الثروات ولتعريفات الكوكب، فمن المفهوم وجوب مقاومة مثل هذا التبسيط بكل القوة الممكنة.

في المحصلة، يبدو أنه كلما زاد الميل إلى العولمة، كلما تكرس الانطباع بمحدوديّة الرؤية! كل واحدٍ منا مستعد للتخلي عن قطعة أرضه، ولكن بالتأكيد ليس من أجل الحصول على قطعة أرض صغيرة أخرى في مكان آخر بعيد المنال.

فلنميز إذاً من الآن فصاعدًا بين العولمة زائد والعولمة-ناقص.

ما سوف يزيد من تعقيد كل محاولة للرسو في مكانٍ ما، هو أن هذا التعريف للعولمة الحتمية سوف يستتبعه، في المقابل، انبثاق صفة "الرجعي".

يعمد أنصار العولمة-ناقص منذ وقت طويل إلى اتهام المناهضين لمشروعهم بالرجعية والتخلف، وبأنهم لا يفكرون سوى بمزرعتهم الضيقة، ويسعون فقط إلى حماية أنفسهم من كل المخاطر بالبقاء داخل بيوتهم الخاصة! (آهٍ! يبشر بالبحر المفتوح أولئك الذين يجدون أنفسهم بمأمن أينما سمحت لهم أميالهم بالطيران...).

من أجل تحريك هذا الشعب العنيد، قام العولميون «Globalisateurs» بالتلويح بورقة التحديث أمام أعينهم. منذ قرنين من الزمان، حددت مجريات الأمور أولئك الذين يقفون في المقدمة ـالمجددين، التقدميين ـ من جهة، وأولئك الواقفين في الخلف من جهة أخرى.

إن شعار "واكبوا الحداثة"! لا ينطوي سوى على هذا المعنى: أي مقاومة للعولمة سوف تُسبغ بطابع لا شرعي منذ البداية. لا يمكن التفاوض مع من يريد البقاء في الخلف. أولئك الذين يتقوقعون في الجهة الأخرى من المسيرة المظفرة للحداثة سوف يتم نبذهم من البداية [٩]. إنهم ليسوا مهزومين وحسب بل هم لا عقلانيون. ويل للمهزومين!

الدعوة إلى مثل هذا النوع من التحديث هي التي ستحدد ـ على النقيض ـ الطابع المحلي، الانتماء إلى الأرض، التمسك بالعادات والتقاليد، التشبث بالموطن، ليس بوصفها مجموعة من المشاعر المشروعة، بل تعبيرًا عن حنين إلى المواقع "التي عفا عليها الزمن" و "الغارقة في الظلام".

تتسم الدعوة إلى العولمة بالغموض الشديد لدرجة أنها تنقل هذا الغموض بالعدوى إلى ما هو متوقع من المحليّ. ولهذا فمنذ بداية الحداثة، اعتُبر كل تمسك بالأرض أمرًا رجعيًّا.

ومثلما هناك طريقتان مختلفتان كليًّا في النظر إلى العولمة، وتعيين تغييرات الكوكب، هناك أيضًا طريقتان على الأقل، متعارضتان بدورهما، في تعريف الانتماء إلى الأرض.

وهنا تواجه النخب التي استفادت كثيرًا من العولمتين (ـ ناقص وـزائد) صعوبةً كبيرة في فهم ما يثير ذعر أولئك الذين يريدون البقاء صامدين، محميين، آمنين، متمسكين بمنطقتهم، وتقاليدهم، وأرضهم أو هويتهم. تعمد النخب إلى اتهام هؤلاء بـ "الشعبوية".

قد ينبع رفض الحداثة من الخوف، من غياب الطموح، من الكسل، نعم، ولكن، كما قال "كارل بولاني"، فإن المجتمع على حق دومًا في الدفاع عن نفسه في وجه الهجمات [١٠]. رفض الحداثة هو في الوقت نفسه مقاومة شجاعة لمقايضة موطن بموطن آخر وول ستريت، بكين أو بروكسل- أضيق وخاصة شديدة أبعد، وبالتالي أقل اكتراثًا بالمصالح المحلية.

هل يمكن إفهام أولئك الذين لا يزالون متحمسين للعولمةـ ناقص، أن من الطبيعي، ومن العدل، ومن المحتم أن يرغب المرء في ضمان الحفاظ على الانتماء إلى أرض، موقع، جماعة، مكان، وسط، طريقة عيش، مهنة، معرفة؟ وكل هذا بالضبط من أجل المزيد من الاختلافات ووجهات النظر وليس العمل على الحد منها.

صحيح أن "الرجعيين" يخطئون فيما يتعلق بالعولمة، غير أن "التقدميين" يخطئون أيضًا ولا سيما في ما يدفع "الرجعيين" إلى التمسك بعاداتهم وتقاليدهم.

لنميز إذًا بين المحلي-ناقص والمحلي-زائد، مثلما ميزنا بين العولمةـناقص والعولمةـزائد. في المحصلة، فإن الشيء الوحيد

الذي يهم ليس أن نعرف ما إذا كنتم مع أو ضد العولمة، مع أو ضد المحلي، بل ما إذا كنتم تدركون بأن المهم هو التمسك بأكبر قدر ممكن من الخيارات في ما يتعلق بالانتماء للعالم.

سيُقال إن ثمة مبالغة في هذا القول، وأن الأمر يتعلق بإدخال تقسيمات مصطنعة بغية التستر على أيديولوجية الدم والأرض القديمة (Blut und Boten[٢]).

الهدف من هذا الاعتراض هو تناسي الحدث العظيم الذي من شأنه أن يضع حدًّا لمشروع التحديث الكبير: من بين كل الطرق فإنه هو الذي غدا مستحيلاً لأنه لم يعد هناك موطن من شأنه أن يحتوي نموذجه في التطور والتحرر والنمو (١١). وبالمقابل فإن كل الانتماءات هي في طور التحول ـ الانتماء للكوكب، للعالم، للأقاليم، للأرض، للسوق العالمية، للعادات والتقاليد.

يجب التصدي للأمر بوصفه مشكلة بُعد ومستوى ومأوى: فالكوكب صغير ومحدود جدًّا بالنسبة حجم كوكب العولمة. وهو في الوقت نفسه كبير، بل كبير جدًّا، وفعال جدًّا ومعقد جدًّا إن بقي محصورًا داخل حدود ضيقة ومحدودة. إننا محاصرون من جهتين: من الكبير جدًّا ومن الصغير جدًّا.

لا يملك أحد الإجابة على السؤال: كيف يمكن إيجاد سبيل للعيش في مكان كهذا؟ لا أحد يملك الإجابة، لا أنصار العولمة (سواء ـناقص أو ـزائد) ولا أنصار المحلية (سواء ـناقص أو ـ زائد). لا نعرف إلى أين نمضي ولا كيف نعيش ولا مع من

٢ مصطلح باللغة الألمانية.

نعيش. ما العمل للعثور على مكان؟ كيف نتوجه في بحر السياسة؟

٥

كان لا بد أن يحدث شيء ما، واقعة عظيمة بالفعل، كي تبدل فكرة العولمة مسارها بسرعة. وللكشف عن ذلك لا بد من التأكيد على الفرضية التي تطرحها العلوم السياسية ـلنَقُل بالأحرى الخيالـالسياسي «politique-fiction»ـ التي أوردناها في المقدمة.

يجب أن نفترض أنه انطلاقًا من الثمانينيّات، أدرك المزيد من الناس ـناشطين، علماء، فنانين، اقتصاديين، مثقفين، أحزاب سياسيةـ زيادة الأخطار التي تهدد العلاقات بين الأرض والإنسان، التي كانت حتى الآن مستقرة(١٢). ورغم الصعوبات، أخذت هذه الطليعة تراكم شهادات تؤكد أن هذه العلاقة لن تدوم، وأن الأرض سوف تقاوم في نهاية الأمر.

فيما مضى، كان العالم كله يرى أن مسألة الحدود سوف تفرض نفسها، ولكن القرار الجماعي، لدى الحداثيين «Modernes» على أقل تقدير، تمثل في تجاهل ذلك بشجاعة من خلال شكل بالغ الغرابة من إطلاق العنان (١٣). كان في الإمكان الاستمرار في التشبث بالأرض، واستثمارها وسوء استثمارها،

دون الإصغاء إلى التحذيرات المتشائمة، طالما أن الأرض نفسها ساكنة!

وعلى الرغم من ذلك، شيئًا فشيئًا، بدأت أسفل أرض الملكية الخاصة، الاستيلاء على الأراضي، استغلال البقاع، أرضٌ أخرى، بقعة أخرى في التحرك، في الاهتزاز، في التأثر. وقع ما يشبه الهزة الأرضية، إن شئنا القول، التي جعلت الطليعيين يصرخون: "انتبهوا، لن يعود أي شيء كما كان من قبل؛ ستدفعون غاليًا ثمن عودة الأرض، عودة القوى التي كانت حتى الآن مسالمة".

عند هذه النقطة، تظهر فرضية الخيال-السياسي: هذا التهديد، هذا التحذير، كان له أن يلقى استجابة تامة من قبل النخب، الأقل تنويرًا على الأرجح، ولكن المسلحين بأدوات ومصالح قوية، والحريصين بشكل خاص على سلامة ثرواتهم الكبيرة واستمرار عيشهم الرغيد.

يجب أن نفترض أن هذه النخب أدركت أن التحذير كان حقًّا تمامًا، غير أنها لم تستطع أن تستنتج من هذه الصرخة، التي تعاظمت قوتها يومًا بعد يوم، بأن عليها أن تدفع غاليًا، وغاليًا جدًّا، ثمن عودة الأرض إلى نفسها. هي كانت واعية بما يكفي كي تدرك حجم التحذير، ولكنها لم تستنتج بما يكفي أن عليها أن تتقاسم النتيجة مع الآخرين.

وعلى العكس من ذلك، فإنها استخلصت من ذلك نتيجتين أفضتا اليوم إلى انتخاب "الملك أوبو" في البيت الأبيض:

"أولاً، نعم، يجب دفع ثمن هذه العودة غاليًا، ولكن على الآخرين أن يدفعوا ثمن الجرار المكسورة، وليس نحن بالتأكيد؛ وثانيًا، حقيقة النظام البيئي الجديد التي تفقد مصداقيتها يومًا بعد يوم، سوف نقاومها حتى آخر رمق".

هذان القراران هما اللذان يسمحان بالعودة إلى ما سُمي ابتداء من الثمانينات بـ "نزع النظام" أو "تفكيك الدولة-العناية الإلهية"، وسُمي، ابتداء من عام ٢٠٠٠، بـ "التفاوضية المناخية"[١٤]، ومنذ أربعين عامًا بشكل خاص، بدأ التعاظم المخيف لكل أشكال اللامساواة[١٥].

إن صحت الفرضية فإنها تؤكد نفس الظاهرة: لقد اقتنعت النخب تمامًا بأنه لن تكون ثمة حياة مستقبلية لكل الناس، ولهذا قررت أن تتخلص بأسرع ما يمكن من الأعباء التي يفرضها التضامن -هذا هو نزع النظام، اللجوء إلى تشييد قلعة ذهبية لحفنة من المستفيدين- هذا هو استغلال اللامساواة. ومن أجل إخفاء الأنانية المفرطة المحركة لمثل هذا الهروب من العالم المشترك، كان لا بد من إنكار أصل مشكلة هذا الهروب المجنون: أي إنكار التبدل المناخي.

إذا أعدنا استخدام الاستعارة في حادثة "تايتانيك"، يمكن صياغتها على النحو التالي: تدرك الطبقات الحاكمة أن الطوفان حتمي، ولهذا تستولي على سفن النجاة، داعية الفرقة الموسيقية؛ لأن تواصل العزف أطول فترة ممكنة، كي تستغل

حلكة الليل من أجل النجاة قبل أن تنتبه الطبقات الأخرى إلى غرق السفينة [١٦]!

وإذا شئنا الاستعانة بواقع صارخ لا علاقة له بالاستعارة: في بداية التسعينيّات، بدأت شركة إكسون موبيل ـوهي على دراية تامة بالأمر، وبعد نشر مقالات علمية ممتازة عن أخطار التبدل المناخيـ تأخذ على عاتقها الاستثمار بشكل واسع في استخراج البترول بشكل مسعور، وفي الوقت نفسه في الترويج بشكل هستيري لعدم وجود تهديد مناخي [١٧].

لقد أدرك هؤلاء الناس ـالذين ينبغي من الآن فصاعدًا أن نطلق عليهم اسم النخب الظلاميةـ بأن عليهم، إن هم أرادوا الاستمرار في عيشهم الرغيد، أن يكفوا عن التظاهر، ولو في الحلم، بأن عليهم تقاسم الأرض مع الآخرين.

يمكن لهذه الفرضية أن تفسر كيف أن العولمةـزائد صارت العولمةـناقص.

بينما كان ممكنًا، حتى التسعينيّات، الربط بين أفق التحديث، وأفكار التقدم، والتحرر، والغنى، والراحة، بل وحتى الرفاهية، وخاصة العقلانية، أدى هوس إزالة الضوابط التنظيمية، وانفجار اللامساواة، والتخلي عن كل أشكال التضامن، إلى ربط أفق التحديث بقرار تعسفي، انبثق من لا مكان من أجل ضمان مصالح فئة قليلة. أفضل عالم صار الأسوأ.

من مقدمة السفينة، ترى الطبقات الفقيرة، وقد استيقظت، سفن النجاة وهي تبتعد. تستمر الفرقة الموسيقية في العزف "أقرب منك يا إلهي"! ولكن الموسيقى لم تعد تكفي للتغطية على أصوات صرخات الغضب...

وينبغي التحدث بالضبط عن الغضب إذا أردنا أن نفهم رد الفعل المتمثل في الارتياب وعدم الفهم لمثل هذا التخلي، لمثل هذه الخيانة.

إذا كانت النخب قد شعرت منذ الثمانينيّات والتسعينيّات، بأن الحفلة انتهت وبأن عليها أن تعمد بأسرع ما يمكن إلى بناء "مجتمعات مغلقة" [١٨] كي تتجنب تقاسم العيش مع جموع الناس ـولا سيما جموع "الملونين" الذين سوف يبدؤون في التحرك على نطاق الكرة الأرضية كلها إذ تم طردهم من أراضيهمـ يمكن إذاً تخيل كيف أدرك المتروكون لأمرهم بسرعة أنه إذا كانت العولمة «Globalisation» قد تخلت عنهم، فهم أيضًا بحاجة إلى "مجتمعات مغلقة".

إن رد فعل طرف يتسبب في رد فعل طرف آخر ـ يستجيب الطرفان لردة فعل أخرى، أكثر راديكالية، متمثلة في توقف الأرض عن تلقي الطعنات وقيامها بردها بعنف وعلى نحوٍ متزايد.

لا يبدو هذا التكاتف غير عقلاني إلا إذا نسينا أن الأمر يتعلق برد فعل واحد متسلسل، ويمكن البحث عن مصدره بتأمل رد فعل الأرض على مشاريعنا. لقد بدأنا نحن ـ الغرب

القديم وعلى وجه التحديد أوربا. لا شيء يمكن القيام به: يجب تعلم التعايش مع نتائج هذه العواصف.

لا يمكن استيعاب سبب التعاظم الرهيب للا مساواة ولا لـ "موجة الشعبوية"، ولا لـ "أزمة الهجرة"، إن لم ندرك أن الأمر يتعلق بثلاثة أجوبة، مفهومة بشكل أساسي ولكنها غير فعالة، في ما يتعلق برد فعل الأرض الرائع إزاء ما فعلته بها العولمة «Globalisation».

أمام التهديد، تقرر عدم مواجهته، وإنما الهرب منه. طرفٌ يقيم في المنفى الذهبي ويمثل واحد بالمئة ـ"يجب قبل كل شيء حماية فاحشي الثراء"!ـ طرفٌ آخر يتمسك بالحدود الراسخة ـ "أشفقوا علينا، دعونا على الأقل نتمتع بهوية ثابتة"!ـ وطرفٌ ثالث، وهو الأكثر بؤسًا، يسلك طريق المنفى.

في المحصلة، هم جميعهم في الواقع "ضحايا العولمة" (ـ ناقص) ـ التي بدأت تفقد جاذبيتها.

٦

كانت النخب الظلامية ستأخذ التهديد على محمل الجد، كانت ستستنتج أن هيمنتها مهددة؛ كانت ستقرر تفكيك الأيديولوجية التي تنادي بكوكب يتقاسمه الجميع، وكانت ستفهم أن مثل هذا التخلي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يُعمم، وأن عليها بالتالي أن تحرف المعارف العلمية التي استندت

إليها كل تلك الحركة وأن تتحرك بكل سرية. حدث كل هذا في السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة.

تبدو الفرضية صعبة التصديق: فنظرية الإنكار تشبه بشدة تفسير التحليل النفسي، إنها أقرب إلى نظرية المؤامرة [١٩].

ولكن ليس من المستحيل توثيقها من خلال الافتراض العقلاني بأن الناس يشعرون بالشك بسرعة حين يلاحظون أن هناك من يخفي عنهم أشياء معينة ويكون لهم رد فعل على ذلك.

من غياب أدلة دامغة، فإن الآثار نفسها واضحة للعيان. أبرز هذه الآثار في اللحظة الراهنة هو الهذيان الأبستيمولوجي الذي سيطر على المشهد العام منذ انتخاب ترامب.

لا يعتبر الإنكار موقفًا مريحًا. الإنكار هو الكذب الصريح، ومن ثمَّ نسيان أن المرء قد كذب ـ وفي الوقت نفسه تذكر الكذبة رغم كل شيء. ذلك الأمر مضني. ربما يتساءل المرء عن مثل هذه العقدة التي يسببها هذا الفخ لمن يقع فيه. هذا يصيبهم بالجنون.

أولاً هذا "الشعب" الذي يبدو وكأن المعلقين الخبراء قد اكتشفوه للتو. لقد استحوذ الصحافيون على الفكرة القائلة بأن الشعب يتبنى خيار "الأعمال البديلة" إلى حد التخلي عن كل ما هو عقلاني.

يُتهم الناس الذين يتحلون بالشجاعة بأنهم يتقوقعون في نظرتهم الضيقة، في مخاوفهم، في تشككهم الفطري في النخب، في لا مبالاتهم التعيسة بالحقيقة، وخصوصًا في تعلقهم العاطفي بالهوية، في شغفهم بالفولكلور، بالتشبه بالقدامى، وبالحدود، فضلاً عن لا مبالاة فظيعة بأحداث الوقائع.

وهذا هو مصدر نجاح تعبير "الواقع البديل".

إنه يكمن في نسيان أن هذا "الشعب" تعرض للخيانة بدم بارد على يد أولئك الذي تخلوا عن فكرة القيام بعمل تحديث فعلي لكوكب الأرض بكل مَنْ عليه، ذلك لأنهم عرفوا قبل الجميع أن ذلك التحديث مستحيل؛ لضيق الكوكب الذي لا يتسع لأحلامهم في تحقيق النمو للجميع.

قبل أن يُتهم "الشعب" بأنه لم يعد يؤمن بشيء، فلنَقِسْ أولاً أثر هذه الخيانة العظمى على درجة الثقة التي كانت لديه: لقد تُرِكَ في أرضٍ مكشوفة.

من المعروف أن ليست ثمة معرفة قائمة بذاتها. لا تترسخ الوقائع إلا عندما تدعمها ثقافة مشتركة، ومؤسسات يمكن الاعتماد عليها، وحياة عامة لائقة، ووسائل إعلام نسبيًّا موثوق فيها [٢٠].

وكأن المطلوب من أناسٍ لم يتم إخبارهم بصورةٍ علنية بأن جهود التحديث التي بُذلت منذ قرنين كانت مهددة بالفشل (وهو ما استشعروه بالرغم من ذلك)، وبأن كل المثل العليا عن التضامن قد رُميت في عرض البحر على يد من كان يرفع

عقيرته بها، كأن المطلوب منهم أن يثقوا في الحقائق العلمية مثل "لوي باستور" و"ماري كوري"!

ولكن الكارثة الأبستيمولوجية كانت على نفس الدرجة من الفداحة عند أولئك الذين يتولون القيام بتلك الخيانة العظمى.

للاقتناع بذلك، يكفي معرفة الفوضى التي تسود البيت الأبيض كل يوم منذ وصول ترامب إليه. كيف يمكن احترام الحقائق الأكثر رسوخًا، حين يتوجب على المرء إنكار ضخامة التهديد وشن حرب عالمية ضد الجميع؟ يبدو الأمر أشبه بالتعايش وفق المثل الشائع "فيل في الغرفة" أو "وحيد قرن يوجين يونيسكو". ليس ثمة ما هو أفظع. هذه الحيوانات الضخمة تشخر، تقأقئ، تنهق، تسحقكم وتمنعكم من التفكير. لقد تحول المكتب البيضاوي إلى حديقة حيوانات فعلية.

إن الإنكار يسمم أولئك الذين يطبقون عملية التخلي، وأيضًا من يُفترض أنهم تعرضوا للخديعة (سنرى لاحقًا نزعة الخيانة التي تتسم بها "الترامبيّة" «Trumpimse»).

الاختلاف الوحيد والهائل، هو أن فاحشي الثراء، والذين لا يُعتبر ترامب سوى ممثل لهم، أضافوا إلى سجلهم هذه الجريمة الغريبة: الإنكار الوسواسي لعلوم المناخ. من جراء ذلك، فإن الناس العاديين وقعوا في بلبلة بسبب المعلومات، دون أن يخبرهم أحد متى انتهى بالفعل التحديث وأن تغيير النظام بات حتميًا.

في الوقت الذي كان فيه الناس العاديون يميلون إلى الارتياب من كل شيء، فقد تم دفعهم، عبر ضخ المليارات من الدولارات لنشر المعلومات المغلوطة، على رفض حقيقة شعبية بسيطة ـ التبدل المناخي [٢١]. ومع ذلك، من أجل امتلاك الفرصة للخروج من المعضلة في الوقت المناسب، كان لا بد من أن يثق الناس في ثبوت هذه الحقيقة كي يعمدوا إلى دفع السياسيين للعمل قبل فوات الأوان. وبينما كان في وسع الجمهور العثور على مخرج نجاة، إذ وقف المتشككون المناخيون كحجر عثرة أمامهم. حين يأتي وقت الحساب، سوف يتوجب التحقيق في تلك الجريمة [٢٢].

لا يؤخذ في الحسبان بما يكفي أن مسألة إنكار التبدل المناخي تشكّل وتدير السياسة برمتها في الوقت الراهن [٢٣].

لقد بدأ الصحافيون يتحدثون بخفة عما يسمونها سياسة "ما بعد الحقيقة". هم لا يشيرون إلى السبب الذي دفع البعض إلى الاستمرار في السياسة، متخلين بشكل طوعي عمّا يربطهم بالحقيقة التي ترهبهم.. وهم على حق في ذلك. كما أنهم لا يوضحون السبب الذي يجعل الناس العاديين يفقدون الإيمان بكل شيء.. هم أيضًا على حق. بعد أن تلقى الناس قدرًا هائلاً من الإهانات، بات مفهومًا أنهم فقدوا الثقة في كل شيء ولم يعودوا يرغبون في سماع أي شيء.

يشير رد فعل وسائل الإعلام إلى أن الوضع، للأسف، ليس أفضل حالاً عند هؤلاء الذين يتباهون بأنهم ظلوا محتفظين

بـ "الحس العقلاني"، الذين يستنكرون اللامبالاة إزاء تصرفات "الملك أوبو"، أو يستهجنون غباء الجماهير الجاهلة. أولئك يستمرون في الاعتقاد بأن الحقائق تصمد بمفردها، دون أن يتقاسمها العالم، بلا مؤسسات، ولا حياة عامة، وأنه سيكون كافيًا أن نعيد الناس الطيبين إلى غرفة فصل دافئة على الطراز القديم، مع لوحٍ أسود وتمارين مدرسية، كي ينتصر العقل في النهاية.

هم أيضًا ضحايا المعلومات الكاذبة. لا يرون أن ليس ثمة فائدة من استنكار أن الناس "يصدقون حقائق بديلة"، إذ إنهم يعيشون بالفعل في عوالم بديلة.

لا تتعلق المسألة بمعرفة كيفية تصويب أخطاء الفكرة، وإنما كيفية المشاركة في الثقافة ذاتها، ومواجهة نفس التحديات، والعمل المشترك. هناك نعود إلى المعضلة المعتادة للأبستمولوجيا والتي تتمثل في تبرير القصور في الممارسة المشتركة بإلقاء اللوم على الثغرات الفكرية.

٧

إذا كان لا ينبغي تصور أن مفتاح الوضع الراهن يكمن في الافتقار إلى الذكاء، فمن الواجب البحث عنه في شكل المساحات التي يتجسد فيها هذا الفكر. وهنا تحديدًا مربط

الفرس: يوجد الآن عدة أراضٍ، غير متوائمة مع بعضها البعض.

لتبسيط الأمر، يمكن افتراض أن كل فردٍ من أولئك الذين كانوا يوافقون حتى الآن على الرضوخ لمشروع التحديث يمكن أن يجد لنفسه مكانًا تحت الشمس بفضل "قوة دفع" تنطلق -لِنَقُل ابتغاء التبسيط- من المحلي إلى العالمي.

لقد تحرك الجميع صوب الكوكب، الذي يرسم الأفق العلمي، والاقتصادي، والأخلاقي في آنٍ واحد: أي كوكب العولمة-زائد. إنه في الوقت نفسه علامة مكانية -رسم خارطة- وزماني: "سهم الزمن" متجه نحو المستقبل. هذا الكوكب الذي أجج الحماسة في أجيال متعاقبة لأنه كان مرادفًا للثروة، والتحرر، والمعرفة، وتحقيقِ حياة مريحة، جلب معه تعريفًا كونيًّا معينًا للكائن الإنساني.

ها هو أخيرًا البحر المفتوح! أخيرًا الخروج من المنزل! ها هو أخيرًا الكون اللانهائي! قلة ضئيلة جدًّا لم يصلها هذا النداء الآسر. فلنتمعن في الحماسة التي دبت في نفوس المستفيدين من هذا الاتجاه، دون أن نستغرب من الرعب الذي جرى في أوصال من جرفهم التيار في طريقه.

الأمر الذي توجب التخلي عنه للدخول في للتعولم هو المحلي. هنا نتحدث عن الأمر باعتباره مفهومًا عامًّا، وليس مسكنًا، أو مسقط رأس، أو أرضَ أجداد، تلك الأرض التي ينحدر منها السكان الأصليون. لا يوجد شيء سكن أصلي، ولا بدائي في هذه البقعة التي أعيد تشكيلها بعد أن قضى

التحديث على وشائجها القديمة. أنه محلي كنقيض للعالمي. مضاد للعولمي «Anti-Global».

بعد تحديد هذين القطبين، يصير ممكنًا تعيين ملامح جبهة طليعية للحداثة. إنها هي التي في وسعها أن ترسم معالم حداثتنا وتهيئنا لبذل كل التضحيات، وتقنعنا بالتخلي عن مسقط رأسنا وعاداتنا وتقاليدنا، إن أردنا السير "قدمًا إلى الأمام" والمشاركة في الحركة العامة للتطور والاستفادة، في نهاية الأمر، من العالم.

كنا منقسمين بالطبع بين اتجاهين: إلى الأمام نحو نموذج التطور؛ وإلى الخلف نحو العودة إلى القناعات والثوابت القديمة. غير أن هذا التردد، هذا التمزق، كان في كل الأحوال يناسبنا. تمامًا كما يعرف الباريسيون تحديد اتجاه نهر السين من خلال تتبع الأرقام المفردة والمزدوجة لشوارعهم، كنا نعرف تحديد اتجاهنا في مسيرة التاريخ.

كان هناك معترضون بالتأكيد، ولكنهم كانوا يقفون على الجانب الآخر من جبهة التحديث. كانوا في معظمهم من الأصليين الجدد، القدماء، المهزومين، المستعمَرين، المغلوبين، المنبوذين. بفضل هذا المحك كان في الإمكان ـدون الوقوع في الخطأـ تتبع سير الرجعيين أو على الأقل المناهضين للحداثة واللامبالين. كان في وسعهم بالطبع الاعتراض، غير أن صرخاتهم كانت بالضبط مبررًا لانتقادهم.

ربما كان الأمر قاسيًا، ولكن في النهاية كان للعالم معنى. كان سهم الزمن متجهًا نحو جهةٍ ما.

كان مثل هذا التعيين للاتجاهات سهلاً لا سيما أن التمييز اليسار/ اليمين، الذي أصبح اليوم محل تشكيك، جرى على أساس تلك القوة الدافعة.

ولكن الأمر لم يكن يخلو من التعقيد، ذلك أن اليمين واليسار لم يسيرا في الاتجاه ذاته.

ففي الاقتصاد، مثلاً، كان اليمين يريد أن يمضي أبعد في اتجاه العولمي «Global»، فيما كان اليسار (ومعه جزء من اليمين) يريد أن يبطئ، يهدأ، يحمي الأكثر فقرًا في وجه قوى السوق (والأمر هنا يتعلق بتذكير نقاط مرجعية أيديولوجية بسيطة).

وفي المقابل، إذا كنا نتحدث عن "تحرير الأخلاق"، أو بدقة أكبر، عن المسائل الجنسية، فسنجد أن اليسار كان يريد دومًا السير أبعد ما يمكن في الاتجاه العولمي، فيما كان اليمين (ومعه جزء من اليسار) يرفض بقوة السير في هذا "المنزلق الشائك".

وهو ما يضفي قدرًا من التعقيد على استخدام التوصيفات مثل "تقدمي" و"رجعي". مع هذا، كان من الممكن بالفعل تمييز "رجعيين" حقيقيين ـيناهضون في الآن نفسه "قوى السوق" و"تحرير الأخلاق"ـ و"تقدميين" حقيقيين. مزيج من اليسار واليمين، يميلون إلى العولمي من أجل تحرير قوى الرأسمال وتنوع الأخلاق في آن واحد.

أيًا ما كانت هذه الفروقات، كان في إمكان المرء، رغم كل شيء، التعرف على موقعه لسبب وجيه ألا وهو أن كل المواقف

كانت تواصل احتلال أماكن على امتداد نفس القوة الدافعة. وهذا ما كان يتيح تحديد مواقعهم، تمامًا مثلما يستكشف المرء حرارة جسم المريض بواسطة ميزان الحرارة.

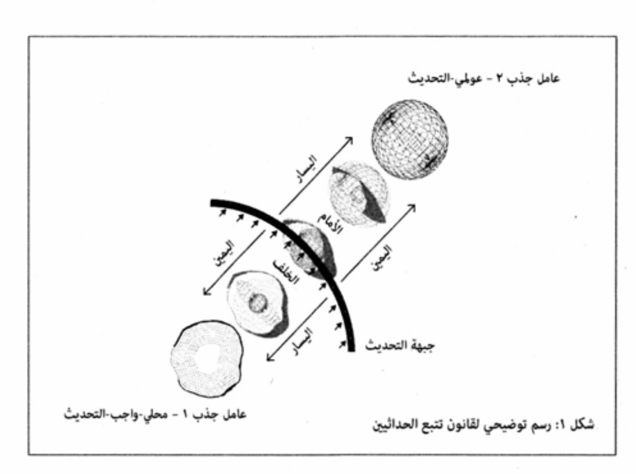
بعد تعيين مجرى التاريخ، كان من المحتمل ظهور عقبات، لحظات من الـ "عودة إلى الوراء"، "قفزات سريعة"، بل "ثورات"، و "انقلابات"، ولكن دون تغيير جذري في التموضع العام للمواقف. يمكن أن تنشأ سجالات فيما يتعلق بالمعنى، ولكن ثمة اتجاه واحد من شأنه أن يزيد من حدة التوتر بين الجاذبَين، العولمي والمحلي (مرة أخرى نشير إلى أن الأمر يتعلق بمفهومين مجردين).

وبما أن الأمر سوف يميل إلى التعقيد، فلا بأس من الاستعانة برسم توضيحي. يسمح الشكل القانوني (الشكل ١) بتعيين المحلي الواجب تحديثه والعولمي الساعي إلى التحديث، بوصفهما جاذبَين يشار إليهما بـ ١ و٢. بينهما، تقوم جبهة التحديث التي تميز بوضوح، وبالطبع بصورة مبسطة، بين الأمام والخلف، بالإضافة إلى التباين بين المواقف اليمين أو اليسار التي تتلقاها قوة الدفع.

في هذا السياق، يتجاهل العولميّ والمحليّ بوضوح كل أشكال الحياة المحلية والعولمية الأخرى، التي كانت الأنثروبولوجيا قد كشفتها لنا، والتي تظل غير مرئية بالنسبة للحداثيين، وبالتالي لا تظهر في الرسم التوضيحي ـ على الأقل في الوقت الراهن. الحداثي هو، بالتعريف، مَن يسقط على

الآخرين في جميع الأنحاء الصراع بين المحلي في مقابل العولمي، بين القديم في مقابل المستقبلي؛ حيث لا يعرف اللاحداثيون كيفية التصرف إزاء ذلك.

(لكي تكتمل الصورة، لا بد من تمديد مشروع الجاذب ٢ إلى ما لا نهاية، وهذا ما يحلم به أولئك الذين يريدون التخلص من مشاكل الكوكب الأرضي بالهروب نحو المريخ، أو من خلال التحصن داخل أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم، أو بالتحول إلى ما بعد بشري بفضل تزاوج "الدي إن إي" «DNA»، والعلوم الإدراكية والروبوتات [٢٤]. لا يقوم هذا الشكل الفائق من "الحداثية الجديدة المفرطة" «Néo-hyper-modernisme» سوى بزيادة سرعة قوة الدفع القديمة إلى حد الغثيان، وبالتالي لا يمثل أهمية لما سوف يأتي).



شكل ١ : رسم توضيحي لقانون تتبع الحداثيين

ماذا سيحدث لهذا النظام من الإحداثيات إذا تحولت العولمةـزائد إلى العولمةـناقص؟ ماذا لو أن ما كان يجتذب نحوه بقوة الأدلة، ويجذب خلفه العالم بأكمله، أصبح نابذًا، غير مفيد سوى لحفنة من الناس؟ كرد فعل على ذلك، حتمًا سيتحول المحلي هو أيضًا من جديد إلى جاذبٍ.

ولكن مهلاً، هذا المحلي لم يعد نفس المحلي. في البحث المحموم عن الحداثةـناقص وعبر البحث المحموم عن المحلي-ناقص، نشأ المحلي الذي ينادي بالتقاليد والحماية والهوية والأمان داخل الحدود القومية أو الإثنية.

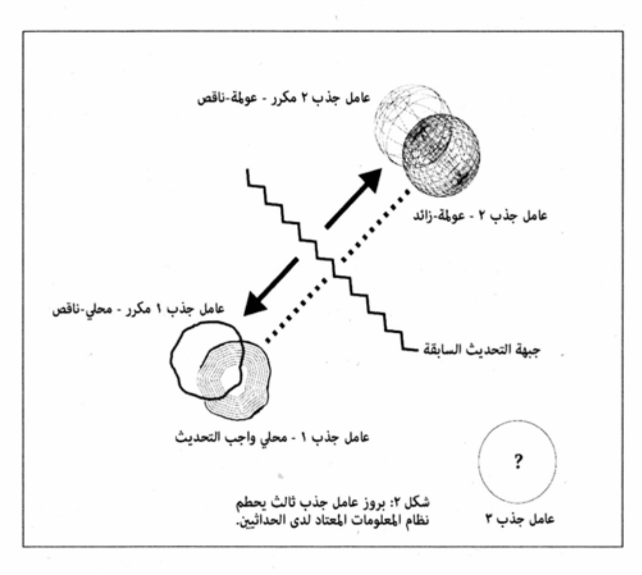
وتلك هي المأساة: لم يعد المحلي المنشود كما كان، كما أنه لا يقدم نموذجًا صالحًا للعيش أكثر من ذلك الذي تقدمه العولمةـناقص. إنه ابتكار استعادي، مسقط العجيزة، إنه ما تبقى بمجرد أن فقده المرء بشكل نهائي أثناء محاولة تحديثه. أيٌ شيء أكثر غرابة من بولندا "كاجينسكي" وفرنسا الجبهة الوطنية وإيطاليا عصبة الشمال وبريطانيا "البريكزيت"، و"أميركا عظيمة مجددًا" بقيادة المخادع العظيم؟

بيد أن القطب الثاني يجتذب حوله معجبين تمامًا مثل القطب الأول، ولا سيما حينما تسوء الأحوال ويفقد التصور المثالي عن الكوكب رونقه أكثر فأكثر.

لقد انتهى الأمر بالجاذبَين إلى التباعد عن بعضهما لدرجة لم يعد المرء يفكر في ما الاختيار بينهما، كما كان يفعل قبل ذلك. هذا ما يسميه المعلقون "توحش" السجال السياسي.

من أجل أن تحتفظ جبهة التحديث بدرجة من المصداقية، وتعمل على تنظيم اتجاه التاريخ لأمد طويل، يتعين على كل الأطراف الفاعلة أن تقيم في مكانٍ واحد، أو على الأقل أن يكون في مقدورهم التوافق على أفق مشترك بينهم، ينادي البعض أحدهما، فيلبي النداء آخرون.

ولكن أنصار العولمة، شأنهم في ذلك شأن العائدين إلى الوراء، قد سارعوا بالهروب من الساحة بأقصى سرعة ممكنة، في منافسة لا واقعية. فقاعة ضد فقاعة؛ مجتمع مغلق ضد مجتمع مغلق.



شكل ٢ : بروز عامل جذب ثالث يحطم نظام المعلومات المعتاد لدى الحداثيين

في مكان الصراع، نشأت هاوية عميقة. وفي خط الجبهة، لم يعد يُرى سوى ندبة خلفتها معركة قديمة لدعم أو لمناهضة تحديث كوكب الأرض بأكمله. لم يعد هناك أفق مشترك ـ حتى ولو من أجل تحديد من هو تقدميّ ومن هو رجعيّ [٢٥].

يشبه الأمر حال ركاب طائرة كانت ستهبط في مطار العولمي، ولكنهم يجدون الطيار يخبرهم أن عليه الدوران للخلف ليعود من حيث أتى؛ لأنه لم يعد بإمكانه الهبوط في هذا المطار، ويسمعونه بهلع يقول لهم ("أيتها السيدات والسادة، كابتن الطائرة، أحدثكم من جديد") إن مخرج الطوارئ، المحليّ، غير قابل للاستعمال هو الآخر. يتمسك الركاب بأماكنهم بقلق، وينظرون من نوافذ الطائرة إلى الأرض التي سيهبطون عليها، مع احتمال سقوط وتحطم الطائرة ـ حتى لو أنهم يثقون في مهارة الكابتن "سولي"، قائد الطائرة في فيلم "كلينت إستوود" [٢٦].

ما الذي حدث إذًا؟ ينبغي أن نفترض أن شيئًا ما قد بدل اتجاه سهم الزمن، عملت قوة قديمة وغير متوقعة في آن واحد أولاً على إثارة قلق الحداثيين، ثم إزعاجهم، وأخيرًا تشتيت مشاريعهم.

يبدو كما لو أن تعبير "العالم الحديث" تحول إلى تناقض لفظي. فإما أنه حداثي، ولكنه لا يجد عالمًا تحت قدميه. وإما أنه عالم حقيقي، ولكنه غير قابل للتحديث. هذه نهاية دورة تاريخية.

فجأة وبصورةٍ حادة، حدث كل شيء كما لو أن جاذبًا ثالثًا قد أطل في كل مكان، فحرك ودفع واستوعب كل نقاط الصراع، وجعل مستحيلاً أي توجه وفق المنظور القديم.

وهذه هي اللحظة المفصلية من التاريخ التي نجد أنفسنا فيها.

لقد صرنا مشوشين لدرجة أننا لم نعد قادرين على تحديد المواقع المختلفة على امتداد المحور المتجه من القديم إلى الجديد، من المحلي إلى العولمي، بل وحتى عاجزين عن تسمية هذا الجاذب الثالث، أو تعيين موقعه، أو مجرد وصفه.

ومع هذا، فإن بوصلة الاتجاه السياسي تعتمد كليًا على هذه الخطوة: يجب أن نقرر من الذي يساعدنا ومن الذي يخوننا، من هو صديقنا ومن هو عدونا، مع من ينبغي أن نتحالف وضد من ينبغي أن نقاتل ـ وكل ذلك تبعًا لاتجاه لم يُرسم بعد.

على أي حال، ليس ثمة ما سيسمح لنا بأن نعود إلى استعمال التقسيمات القديمة مثل "اليمين" و"اليسار"، "التحرير" و"الانعتاق"، "قوى السوق". وحتى مفهومي الزمان والمكان اللذين ظلا لوقت طويل بديهيين، إلى جانب مفاهيم "المستقبل" أو "الماضي"، "المحلي" أو "العولمي" (٢٧).

يجب القيام برسم خريطة لكل شيء من جديد، وذلك على وجه السرعة قبل أن يصطدم السائرون نيامًا أثناء هروبهم بما نتمسك به ويدهسوه.

٨

إذا كنا قد ادعينا، في بداية هذا النص، أن قرار الولايات المتحدة بالانسحاب من اتفاقية المناخ يبرز الوضع السياسي الجديد، فذلك لأن المسار المقترح يعطينا فكرة مخالفة كليًا عن الاتجاه الواجب اتخاذه، لدرجة أنها في النهاية أتت بتعريف، على النقيض، لوضع عامل الجذب الثالث!

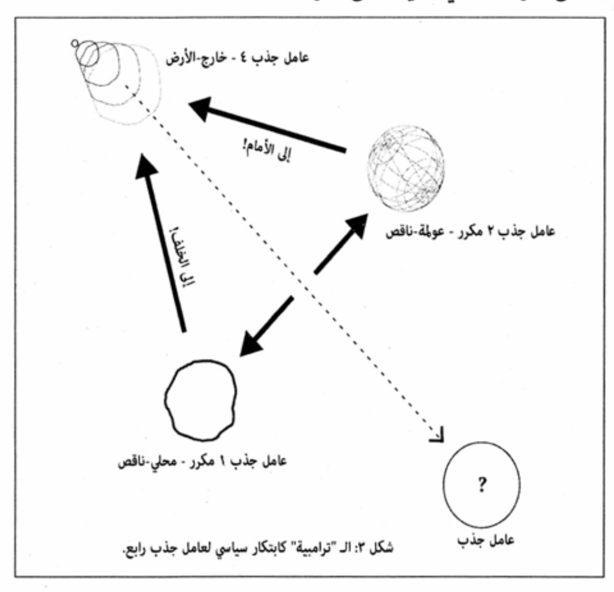
كي نقيس إلى أي مدى اتضحت الصورة، يكفي أن نتخيل شكل الحوارات التي كانت ستدور لو أن حملة "البريكزيت" مُنيت بالفشل في يونيو ٢٠١٦؛ لو أن "هيلاري كلينتون" انتُخبت رئيسة للولايات المتحدة، أو لو أن ترامب لم ينسحب من اتفاقية باريس بعد انتخابه رئيسًا. كان سيُجري تقييم لحسنات وسيئات العولمة كما لو كانت جبهة التحديث في أبهى صورها. لحسن الحظ، إذا جاز القول، فإن أحداث العام الماضي زادت الأمر سوءًا.

إن "الترامبيّة" ابتكار في عالم السياسة، لا يُرى الكثير من أشباهه ومن الضروري أخذه بجدية [٢٨].

في الوقع، إن دهاء أولئك الذين يدعمونه يكمن في قيامهم بتأسيس حركة راديكالية مهمتها الإنكار المنهجي لوجود تبدل مناخي.

كل الأمور تجري كما لو أن ترامب قد توصل إلى الاستدلال على عامل جذب رابع. لا نجد صعوبة في تسميته: إنه "خارج-الأرض" (الشكل ٣): أي أفق مَن لم يعد ينتمي إلى واقع الأرض التي ستقوم بالرد على أفعاله حيالها. للمرة الأولى، تقوم نزعة إنكار المناخ بتحديد اتجاه الحياة العامة لبلدٍ ما.

يظلم المرء الفاشيين حين يقارن ما يمثله ترامب بحركات سنوات ١٩٣٠. ليس ثمة ما يجمع بين الحركتين سوى ابتكار غير المتوقع في مجموعة الآثار السياسية، والتي تترك النخب القديمة، لبعض الوقت، في حيرة من أمرها تمامًا.



شكل ٣ : الـ "ترامبية" كابتكار سياسي لعامل جذب رابع

ما كانت الفاشيات قد نجحت في دمجه بقي على امتداد قوة الدفع القديمة ـ ذلك الذي يتجه نحو التحديث، انطلاقًا من الأراضي القديمة. لقد استطاعوا أن يدمجوا حلم العودة إلى ماضٍ مجيد ـروما أو الجرمانـ بالمثل العليا الثورية والتحديث الصناعي والتقني، كل ذلك من خلال إعادة استنباط شكل الدولة الشمولية ـودولة الحربـ في مقابل فكرة الفرد المستقل.

لا وجود لشيء من هذا في التجديد الحالي: الدولة منبوذة، الفرد ملك، وما ينبغي القيام به قبل أي شيء هو كسب الوقت لإطلاق الشياطين، قبل أن يدرك الشعب أن ليس هناك عالم يتطابق مع أميركا تلك.

تكمن أصالة ترامب في التوفيق بحركةٍ واحدة بين، أولاً، الهروب إلى الأمام نحو الحد الأقصى من المنفعة تاركًا بقية العالم لمصيره (من أجل تمثيل "البسطاء" يجري اللجوء إلى أصحاب المليارات!)؛ ثانيًا، هروب شعب بأكمله إلى الخلف باتجاه العودة إلى التصنيفات القومية والإثنية ("لنجعل أميركا عظيمة مجددًا" خلف جدار!).

بدلاً من إثارة أحد الهروبَين ضد الآخر ـنحو العولمة ونحو العودة إلى الحقل القومي القديمـ كما حدث من قبل، فإن أنصار ترامب يتصرفون كما لو كان يُمكن الدمج بينهما. كما هو واضح، هذا الدمج غير ممكن إلا إذا تم إنكار وجود صراع الآن بين التحديث من جهة، ووضع الأرض من جهة أخرى.

من هنا يبرز الدور التأسيسي للنزعة التشككية المناخية، والتي لا يمكن فهمها خارج ذلك (لنتذكر أن القضايا المناخية كانت موضوع اتفاق بين الجمهوريين والديموقراطيين حتى فترة كلينتون[٢٩]).

والسبب بالطبع مفهوم: من الواضح تمامًا الغياب التام للنظرة للواقعية لعملية الدمج ـ يقوم الوول ستريت بقيادة الملايين من أبناء الطبقات التي توصف بالوسطى نحو حماية الماضي! في اللحظة الراهنة، لا تعتمد القضية سوى على شرط اللامبالاة التامة إزاء النظام المناخي الجديد، وذلك من خلال كسر كل أشكال التضامن، سواء في الخارج بين الأمم، أو في الداخل بين الطبقات.

للمرة الأولى، لا تدعي حركة واسعة النطاق القيام مواجهة الحقائق الجيوسياسية بصورة جدية، ولكنها تتخلص بشكل صريح من أي قيود، وتعمل حرفيًا في الخارج ـ مثل الملاذات الضريبية الآمنة. ما يهمها قبل أي شيء آخر هو ألا تُضطر إلى أن تتقاسم مع الآخرين عالمًا يعرفون أنه لن يكون أبدًا بعد الآن مشتركًا. وفي الوقت نفسه، يتم الاحتفاظ بالنموذج الأميركي للحدود: أي الإقلاع نحو اللاواقعية!

كما لو كانت هناك رغبة في الابتعاد بأسرع ما يمكن عن هذا الجاذب الثالث، هذا الشبح الذي يسكن السياسة كلها، والذي كانت "الترامبيّة" ستكتشفه، وهذه هي فضيلتها!

(ومن الجدير بالملاحظة أن هذا التجديد يقوم به طرف يقوم بالتطوير ولكنه مثقل بالديون بصفة مستمرة، معرض للإفلاس المرة تلو الأخرى، وصار شهيرًا على تليفزيون الواقع، ذلك الشكل الآخر من اللاواقعية والهروب من الواقع إلى الخيال).

حين أُعطي أولئك المتجهون صوب المحلي-ناقص وعدًا باستعادة الماضي، في حين أن من وعدهم كان يعتزم الحصول على فوائد ضخمة ستُحرم منها الغالبية العظمى من هؤلاء الناخبين أنفسهم، فالأمر لا يحتاج إلى التوقف عند تفاصيل أدلة التجربة!

كما رأينا، من غير المجدي الشعور بالسخط بحجة أن المنتخبين الترامبيين "لا يصدقون الوقائع". فهم ليسوا أغبياء: لَمّا كان إنكار الواقع الجيوسياسي برمته أمرًا ضروريًا، فقد صارت اللامبالاة إزاء الوقائع أساسية للغاية. إذا كان من الواجب أن يُؤخذ في الاعتبار التناقض الهائل بين الهروب إلى الأمام والهروب إلى الخلف، فينبغي الاستعداد للهبوط!

تقوم هذه الحركة بتعريف أول حكومة منشغلة كليًا بالمسألة البيئية - ولكن بطريقةٍ عكسية: أي بصورةٍ سلبية، بالرفض! وهو الذي يسهل عملية التَعَقُّب: كما يتضح من الشكل ٣، يكفي أن يقف المرء خلف ظهر ترامب وأن يرسم خطًا يقود مباشرة إلى حيث ينبغي الذهاب!

وبالطبع، يجب على "الناس الصغار" ألا يتعلقوا بالأوهام بشأن بقية المغامرة. إن مَن يعمل ترامب من أجلهم هم تحديدًا تلك النخب الصغيرة التي أدركت منذ الثمانينيّات بأنه لن يكون ثمة مكان يتسع لهم ولتسعة مليار من المتروكين لأمرهم. "لتزِلِ الضوابط التنظيمية، لتزِلْها؛ لنَشْرَع في ضخ كل ما يحتاج إلى ضخ - "اثقب يا عزيزي اثقب"! إذا اعتمدنا على هذا المجنون، سنكسب في نهاية الأمر مهلة من ثلاثين أو أربعين عامًا لنا ولأولادنا. بعد ذلك فليأت الطوفان، في كل الأحوال فسنكون قد فارقنا الحياة".

يعرف المحاسبون جيدًا المتعهدين الذين دأبوا على "الاقتراض من أجل سداد الديون": إن ابتكار "الترامبيّة"، جعل أعظم أمة في العالم تواصل الاستدانة من أجل سداد ديونها. إنه بورتريه لترامب في صورة "مادوف الدولة"!

ولا يجب أن ننسى ما يفسر الأمر كله: إنه يرأس البلد الذي كان سيتكبد الخسارة الكبرى إذا عاد إلى الواقع؛ الذي يملك بنى تحتية مادية تبدو إعادة توجيهها بسرعة الأكثر صعوبة، والذي تُعتبر مسؤولياته في الوضع المناخي الراهن هي الأكثر تدميرًا؛ ولكنه، وهذا أكثر ما يثير الحنق، يملك كل القدرات العلمية، والتقنية، والتنظيمية التي كانت تستطيع قيادة "العالم الحر" إلى الانعطاف نحو عامل الجذب الثالث.

لذا بمعنى، يمثل انتخاب ترامب بالنسبة لبقية العالم إقرارًا بنهاية السياسة الموجهة نحو هدف قابل للتحقق. هذه ليست

سياسة "ما بعد الحقيقة"، إنها سياسة ما بعد السياسة: أي أنها حرفيًا بلا هدف لأنها تتخلى عن العالم الذي تزعم أنها تعيش فيه.

إنه خيار أحمق، ولكنه مفهوم. لقد رأت الولايات المتحدة العقبة، وكما يقال بصدد الخيول، فإنها عاندت ـ على الأقل في الوقت الراهن. وعلى الآخرين أن يتكيفوا مع هذا العناد.

كل فرد لديه الفرصة أن يفيق، على أي حال هذا ما نأمله. وإن كان التهديد المناخي وحده لم ينجح في اختراق جدار اللامبالاة والتساهل، فربما ستهدمه الفوضى حين يصبح العالم مسرحًا يتحدث فيه الجميع في وقتٍ واحد ويريد كل فرد تولي القيادة.

ومهما كان، فالأمر لا يتطلب قدرًا كبيرًا من نفاذ البصيرة لكي يستشرف المرء أن المسألة برمتها ستنتهي في طوفان من النار. هذا هو التشابه الحقيقي الوحيد مع الفاشيات [٣٠]. على النقيض من مقولة ماركس، فإن التاريخ لا يمضي ببساطة من المأساة إلى المهزلة، بل يمكن له أن يكرر مرةً أخرى مهزلة مأساوية.

٩

يبدو مضحكًا أن يُلمِّح البعض أننا لا نملك مؤشرًا دقيقًا عن ذلك الجاذب الثالث، سوى من أولئك الذين يهربون منه. كما لو أننا، نحن الحداثيين، لم نعرف قط الإطار العام لحركتنا

والاتجاه العام لتاريخنا. كما لو أن الأمر كان يتطلب منا انتظار نهاية القرن الماضي كي نلحظ أن مشاريعنا كانت بشكلٍ ما تسبح في الهواء.

ولكن، أليس هذا هو بالضبط الموقف الذي نواجهه؟ إن العولمي (سواء ـناقص أو ـزائد) الذي كنا نسير نحوه حتى الآن، الأفق الذي كان يسمح بالتطلع نحو عولمة أو كوكبة غير محدودة (وكرد فعل على ذلك، النزعات المحلية التي كانت تتكاثر من أجل الهروب من هذا المصير الذي يبدو أنه محتوم)، كل هذا لم يقف أبدًا على أرضية، لم يكن واقعيًا، ولم يكن له قوام مادي متماسك.

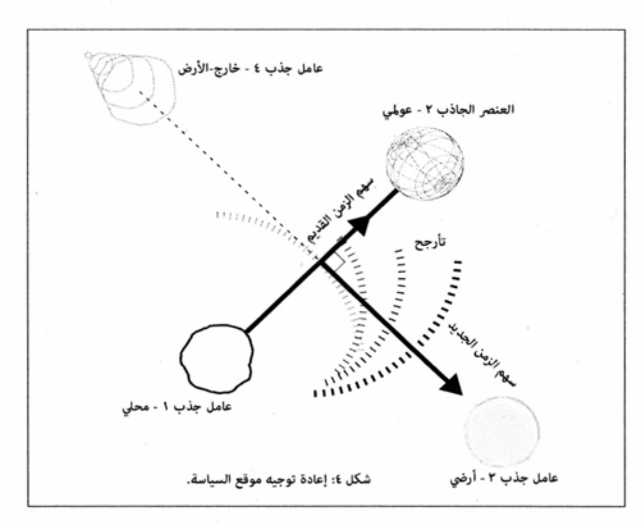
هناك انطباع مفزع بأن السياسة قد أُفْرِغَت من محتواها، بأنها لم تعد تستند على أي شيء، بأن لم يعد لديها اتجاه أو هدف، بأنها أصبحت حرفيًا حمقاء وعاجزة. السبب وراء هذا الانطباع هو ذلك الكشف التقدمي: ليس ثمة وجود مادي ودائم سواء للعولمي أو المحلي.

وبالتالي، فإن قوة الدفع الأولى المذكورة أعلاه (الشكل ١)، هذا الخط الأيمن الذي كان يساعد على تعيين خطوات التقدم والتراجع، تشبه طريقَ سفر سريعًا بلا بداية ولا نهاية.

إذا كان الوضع يتضح رغم كل شيء، فذلك لأننا بدلاً من كوننا عالقين بين الماضي والمستقبل، بين رفض التحديث وقبوله، نجد أنفسنا اليوم، وقد استدرنا ٩٠ درجة، "عالقين بين قوة دفع قديمة وأخرى جديدة"، ومدفوعين إلى الأمام بفعل سهمين زمنيين لا يسيران في نفس الاتجاه (الشكل ٤).

تتعلق المسألة بأكملها بتحديد مما تتكون تلك المفردة الثالثة. كيف يمكن أن تصبح أكثر جاذبية من المفردتين الأُخرتين ـ ولماذا تبدو منفرة جدًا بالنسبة لكثيرين؟

تكمن الصعوبة الأولى في إطلاق اسم عليه، اسم لا يختلط مع الجاذبين الأُخريين. "الأرض"؟ سيُعتقد أن الأمر يتعلق بكيف يبدو الكوكب من الفضاء، "الكوكب الأزرق" الشهير. "الطبيعة"؟ سيكون اسمًا فضفاضًا للغاية. "جايا"؟ قد يكون اسمًا دقيقًا غير أنه يحتاج إلى صفحاتٍ وصفحات توضِّح استخداماته. "تربة" تُذكِّر فورًا بأشكال قديمة للحياة المحلية في مناطق متجاورة. "عالَم" نعم، بالتأكيد، ولكنه قد يتسبب في الخلط بينه وبين الأشكال القديمة للعولمة.



شكل ٤ : إعادة توجيه موقع السياسة

لا ، يجب العثور على لفظ يحوي الأصالة المذهلة (القِدَم المذهل) لهذا العامل الوسيط. لنَقُل في هذه اللحظة "الأرضيّ" بوصفه مفهومًا ؛ وحتى لتحديد وجهتنا مسبقًا: الأرضيّ بوصفه "فاعلاً ـ سياسيًّا" جديدًا.

في الواقع، إن الحدث الهائل الذي يتعين استيعابه هو قدرة هذا الأرضيّ على الفعل، إذ لم يعد ديكورًا، أو في خلفية المشهد، لنشاط البشر.

كثيرًا ما يجري الحديث عن "الجيوبوليتيك" «Géopolitique» كما لو أن البادئة "جيو" «Géo»[٣] لا تشير سوى إلى الإطار الذي يتم داخله النشاط السياسي. غير أن ما يتعرض للتغيير هو أن "جيو" صارت تشير إلى "وسيط" يشارك بشكل فعال في الحياة العامة.

ينبع فقدان الوجهة الحالي من انبثاق فاعلٍ يقوم من الآن فصاعدًا برد فعل إزاء ما يصنعه البشر ويمنع التحديثيون من إدراك موقعهم، والعصر الذي يعيشون فيه، وعلى وجه الخصوص الدور الذي يجب عليهم بعد الآن القيام به.

سيتعين على الخبراء في الجيوسياسة الذين يتفاخرون بالانتماء إلى "المدرسة الواقعية" أن يلحقوا بعض التغييرات في الواقع الذي سيكون على خططهم الحربية التصدي له.

---

٣ يعود أصل البادئة «Géo» إلى اللغة اللاتينية، وتعني "الأرض".

حتى وقتٍ قريب، كان ممكنا القول بأن البشر كانوا موجودين "على الأرض" أو "داخل الطبيعة"، بأنهم كانوا يعيشون "في العصر الحديث" وأنهم كانوا "بشرًا مسؤولين عن أفعالهم" بدرجات متفاوتة.

كان بالإمكان التمييز بين جغرافيا "طبيعية" وجغرافيا "بشرية" كما لو كانتا طبقتين متراكبتين. ولكن كيف يمكننا تحديد موقعنا إذا كان "على" أو "داخل" المكان الذي نحن فيه يقوم بالرد على أفعالنا، يرتد إلينا، يحتجزنا، يسيطر علينا، يطالب بشيء ويجرفنا في مجراه؟ كيف يمكن من الآن فصاعدًا التمييز بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية؟

طالما كانت الأرض تبدو مستقرة، فكان بوسعنا الحديث عن "مكان"، والتموضع داخل هذا المكان، وعلى قطعة أرض كنا نزعم شغلها. ولكن ما العمل إذا بدأت قطعة الأرض نفسها في المشاركة في القصة، في رد الضربات الواحدة تلو الأخرى، باختصار، إذا ما بدأت تنشغل بنا؟ إن تعبير: "أنا أنتمي إلى الأرض" قد غير معناه: إنه يشير الآن إلى السلطة التي تتحكم في مالك الأرض!

لم يعد الأرضيّ إطار النشاط البشري، ذلك أنه يشارك فيه. لم يعد المكان ما يُرسم على الخريطة بخطوط الطول والعرض التي تميزه. لقد صار المكان تاريخًا مضطربًا نشارك فيه نحن وآخرون، وصار يتفاعل مع ردود أفعال أخرى. يبدو أننا

كنا نرسو على "جغريخ" (Géohistoire)[٣١]. (جغريخ: دمج كلمتي جغرافيا وتاريخ معًا[٤]).

السير نحو العولمي، هو أن يتقدم المرء دائمًا إلى الأمام نحو أفقٍ لا نهائي، أن يدفع أمامه حدودًا لا حدود لها ـ أو، بالعكس، إذا كان المرء ينظر إلى الجهة الأخرى: أي نحو المحلي، فذلك كان أملاً منه في استعادة الشعور بأمان تمنحه حدود مستقرة وهوية مؤكدة.

إذا كان من الصعب أن نفهم اليوم العصر الذي ننتمي إليه، ذلك لأن الجاذب الثالث معروف من الجميع وغريب عليهم تمامًا في آن واحد.

الأرضيّ، إنه عالم جديد، بالتأكيد، ولكنه لا يشبه ذلك الذي قام الحداثيون في الماضي بـ "اكتشافه"، عبر إخلائه مسبقًا من سكانه. هذه ليست "أرضًا مجهولة" جديدة في انتظار مستكشفين بخوذاتهم البيضاء. وتحت أي ظرف من الظروف، فالأمر لا يتعلق بـ "أرضٍ مشاع"، متاحة للتملّك.

على العكس، يجد الحداثيون أنفسهم آخذين في الهجرة إلى أرض، إقليم، تربة، بلد، حلبة سباق، أيًّا ما كان الاسم الذي يُطلق عليها، فقد تم بالفعل شغلها، وهي دائمًا مأهولة بالسكان. وفي الفترة اللاحقة، باتت مكتظة بأولئك الذين شعروا قبل غيرهم أن عليهم الهروب بأسرع ما يمكن من التحديث[٣٢].

---

٤ ترجمة المصطلح وشرح مكوناته.

في ذلك العالم، يشعر كل فكر حداثوي كأنه في منفى. سوف يجب عليه أن يتعلم التعايش مع من كان يعتبرهم حتى الآن قديمين، تقليديين، رجعيين أو ببساطة "محليين" [٣٣].

فبالرغم من كون هذا المكان عتيقًا إلا أنه في الوقت ذاته جديد بالنسبة للعالم بأسره، لأن ببساطة ليست ثمة سابقة للوضع الحالي، هذا ما توضحه النقاشات الجارية بين المختصين في شؤون المناخ. ها هي "العالميّة الخبيثة"، هذا النقص العالمي للأرض.

وفقًا لتفسير الجيولوجيين، فإن ما تُسمى بحضارة، لِنَقُل العادات المكتسبة خلال الألفيات العشر الأخيرة، بدأت تتحطم في فترةٍ ومكانٍ جغرافيين مستقرَيْن بشكلٍ مذهل. كان "الهولوسين" «L'Holocène» (هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليها) يتمتع بكل سمات "إطار"، يُمكن التمييز بداخله دون صعوبة كبيرة بين أعمال البشر، كما يحدث في المسرح؛ حيث يُمكن نسيان الخشبة والكواليس من أجل التركيز على الحبكة.

لم يعد الحال كذلك في عصر "الأنثروبوسين" «L'Anthropocène»[٥]، هذه المفردة المثيرة للجدل التي يود بعض الخبراء إطلاقها على العصر الراهن [٣٤]. فلم يعد الأمر يتعلق بتقلبات مناخية طفيفة، بل بانقلاب يحرك النظام- الأرضي- نفسه (٣٥).

٥ أي متمركزة حول البشر.

صحيح أن البشر عمدوا دومًا إلى تعديل بيئتهم، غير أن هذا اللفظ لم يكن يعني سوى محيطهم، تحديدًا ما كان يحيط بهم. هم بقوا الشخصيات المحورية، مكتفين بإجراء تعديلات طفيفة على ديكور مسرحياتهم الدرامية.

أما اليوم، فالديكور، والكواليس، وخلفية المشهد، وخشبة المسرح بأكملها، قد نُصبوا على أرضيته، وصاروا يتنازعون مع الممثلين على لعب الدور الرئيسي. ذلك يغير النص الدرامي برمته، ويقترح نهايات أخرى له. فلم يعد البشر الممثلين الوحيدين، بل بات يُسند إليهم دور أكثر أهمية من اللازم (٣٦).

المؤكد هو أنه لم يعد ممكنًا تكرار نفس الحكايات السابقة. التشويق طاغ.

العودة إلى الوراء؟ إعادة تعلُّم الوصفات القديمة؟ إعادة تفحص الحكمة التي استمرت لآلاف السنين؟ التعلم من الثقافات التي لم تلحق بعد بركب التحديث؟ نعم، بالتأكيد، لكن دون أوهام: فليست ثمة سابقة لهذه الخيارات أيضًا.

ليس هناك مجتمع إنساني، حكيمًا، ومرنًا، حصيفًا، وحذرًا، كما يمكن أن تتخيلوه، كان في وسعه أن يصمد أمام رد فعل النظام الأرضي إزاء أفعال ثمانية أو تسعة مليارات من البشر. إن الحكمة التي تراكمت عبر عشرات الآلاف من السنين، حتى لو تمكننا من إحيائها من جديد، لم تخدم سوى

مئات، الآلاف، بضعة ملايين، من البشر الموجودين في مشهد مستقر نسبيًا.

لن يحدث فهم شيء من فراغ السياسة الراهنة ما لم يتم استيعاب إلى أي حدٍّ يفتقر الوضع الحالي إلى سابقة. وهو وضع يصيب بالارتباك.

على الأقل، يسهل علينا أن نفهم رد فعل أولئك الذين قرروا الهرب. كيف يمكن تقبل اللجوء طواعية إلى ذلك الجاذب في الوقت الذي كان المرء يمضي بهدوء نحو أفق التحديث الكوني؟

أن يرضى المرء مشاهدة وضع كهذا وجهًا لوجه فذلك أشبه بالوضع الذي وجد فيه بطل "إدغار آلان بو" نفسه في قصة "النزول إلى الدوامة" [٣٧]. لعل ما يميز بين الغرقى والناجي الوحيد، هو الانتباه البارد الذي يستكشف به البحار العجوز، في جزر "لوفوتين"، حركة كل الحطام الذي يدور مع الدوامة من حوله. حين جرت الدوامة السفينة إلى الأعماق، ظل الراوي على قيد الحياة لأنه تشبث ببرميل فارغ.

ينبغي أن يكون المرء بألمعية هذا البحَّار العجوز: ألا يظن أنه سيخرج من الورطة، ألا يكف عن ملاحظة مسار انجراف كل أجزاء الحطام وبانتباه شديد، ربما سيسمح ذلك له ـ في لمح البصر ـ باكتشاف لماذا تُجذب بعض أجزاء الحطام نحو الأعماق، بينما يمكن استخدام أجزاء أخرى بسبب شكلها كأطواق نجاة. "مملكتي في مقابل برميل"!

١٠

إن كان هناك موضوع جدير بالاهتمام هو نهب وتدمير علم البيئة «Écologie» في العالم الحديث. في الواقع، فإن هذه الأرض القديمة جدًّا والجديدة جدًّا بشكل مفجع ـهذا الأرضيّ الذي ينبغي أن نرسو عليهـ سبق وتعرضت لعمليات مسحٍ شامل بكل معاني الكلمة على يد ما يُمكن تسميته بـ "الحركات البيئية". إنها "أحزاب الخضر" التي حاولت أن تجعل من علم البيئة المحور الجديد للحياة العامة، وهي التي أشارت إليه منذ بداية الثورة الصناعية ولا سيما منذ انتهاء الحرب بوصفه الجاذب الثالث [٣٨].

حين كان سهم الزمن عند الحداثيين يجر كل شيء نحو العولمة، كانت الإيكولوجيا السياسية [٦]"Écologie politique" تحاول أن تجر كل شيء نحو هذا القطب الجديد.

من الواجب إنصاف تيارات البيئة السياسية؛ إذ إنها استطاعت تحويل كل شيء إلى موضوع للجدل ـبدءًا من لحم البقر حتى أحوال الطقس، مرورًا بالحيتان، بالمناطق الرطبة، بالذرة، بمبيدات الحشرات، بالديزل، بالتمدن أو بالمطاراتـ بحيث صار لكل جسم مادي "بُعدًا بيئيًّا".

بفضل تلك التيارات، لم يعد أي مشروع تطوير لا يثير احتجاجًا، لم يعد أي اقتراح لا يثير معارضة. وهذه إشارة لا تخطئ: إن الفاعلين السياسيين الأكثر تعرضًا للقتل اليوم هم المناضلون من أجل البيئة [٣٩]. وكما رأينا، كل الموضوعات محل رفض الإنكاريين تتركز على المناخ.

وعليه، فقد نجحت البيئة في السير بالسياسة انطلاقًا من قضايا لم تكن حتى الآن جزءًا من الاهتمامات المعتادة في الحياة العامة. لقد تمكنت من تخليص السياسة من تعريفها شديد الضيق للعالَم الاجتماعي. وبهذا المعنى، نجحت البيئة السياسة بالكامل في شغل الفضاء العام برهانات جديدة [٤٠].

أن نُحَدِّث العالم أو أن نصادِق البيئة، صار هو الخيار الحيوي. يتفق العالم كله على ذلك. ومع هذا، فقد فشلت في ذلك البيئة السياسية. وهو ما يتفق عليه العالم كله أيضًا.

تظل الأحزاب الخضراء في كل مكانٍ أحزاب مُكَمِلة للتحالفات الحكومية. إذ لم تعرف أبدًا على أي قدم ترقص. فحين تتحرك هذه الأحزاب من أجل قضايا "الطبيعة"، تعارضها الأحزاب التقليدية باسم الدفاع عن مصالح البشر. وحين تتحرك من أجل "قضايا اجتماعية"، تصرخ الأحزاب التقليدية نفسها في وجهها: "بأي حق تتدخلون في هذه القضايا"؟ [٤١].

بعد خمسين عامًا من المسيرة النضالية، مع بعض الاستثناءات الخجولة، لا يزال الاقتصاد يُوضع مقابلاً للبيئة،

ومتطلبات النمو مقابلاً لتلك التي تتعلق بالطبيعة، وقضايا الظلم الاجتماعي مقابلاً لمسيرة العالَم الحي.

ولكي لا نظلم الحركات البيئية، ينبغي تحديد موقعها تبعًا لثلاثة عوامل جاذبة وذلك سعيًا لفهم سبب إخفاقها المؤقت.

التشخيص بسيط للغاية: حاول البيئيون عدم الانحياز لا إلى اليمين، ولا اليسار، ولا الفوضويين، ولا التقدميين، دون أن يفلحوا في الخروج من الفخ الذي نصبه لهم سهم الزمن الحداثيين.

لنبدأ بتفسير هذه المعضلة باستخدام تقنية التثليث «Triangulation»[٧] كما يبينها الرسم التوضيحي الطفولي. (سنرى لاحقًا لماذا أدى مفهوم "الطبيعة" بحد ذاته إلى تجميد الموقف).

في الواقع، هناك على الأقل طريقتان "لتجاوز" الانقسام يمين/ يسار. يمكن التموضع "في الوسط" بين القطبين، وذلك بالتواجد على طول قوة الدفع التقليدية (الضلع ١ـ٢). ولكن يمكن أيضًا القيام بإعادة تعيين قوة الدفع، بالاستناد إلى الجاذب الثالث الذي يحتّم إعادة توزيع مواقع اليمين/ اليسار، ووفقًا لوجهة نظر أخرى (الأضلاع ١ـ٢ـ٣ في الشكل ٥).

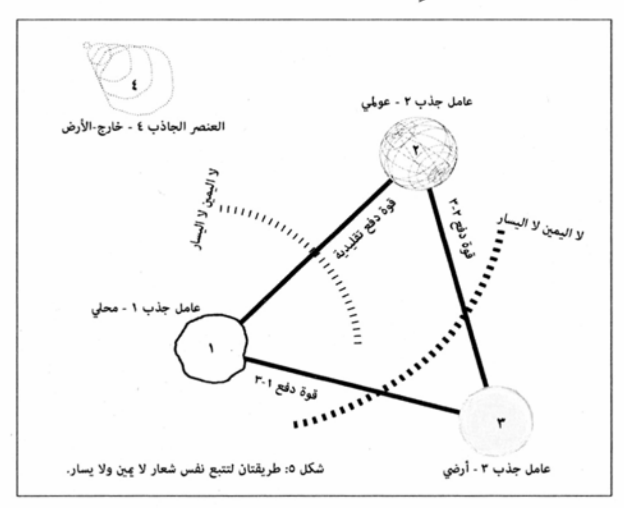
كثيرة هي الأحزاب والحركات ومجموعات الرأي التي زعمت أنها اكتشفت "طريقًا ثالثًا" بين الليبرالية والمحلية، بين فتح الحدود وحمايتها، بين التحرر الأخلاقي وتحرير أو "لَبْرَلَة"

---

٧ تقنية قياس المساحات وتحديد موضع واتجاه العناصر بداخلها، عن طريق اعتبار كل ثلاثة عناصر كزوايا مُثَلّث.

«Libéralisation» الاقتصاد [٤٢]. وإذا كانت هذه الجبهة قد أخفقت في ذلك حتى الآن، فلأنها افتقرت إلى القدرة على تصور نظام إحداثيات «Système de coordonnées» آخر غير ذاك الذي كان يقلص مسبقًا قوتها إلى حد العجز.

إذا كان الأمر يتعلق بـ "الخروج من التناقض يمين/ يسار"، فليس إطلاقًا من أجل التموضع في منتصف الضلع القديم، من خلال إضعاف القدرة على التمييز، والتشذيب، والقطع. نظرًا لقوة المشاعر التي تثيرها دائمًا إعادة النظر في هذا التدرُّج بين اليمين/ اليسار، سيكون من الضروري عدم الخلط بينه وبين مركزٍ جديد، مستنقعٍ جديد، "موطن ضعف" جديد.



شكل ٥ : طريقتان لتتبع نفس شعار لا يمين ولا يسار

على النقيض من ذلك، كما يتضح من المثلث، فالأمر يتعلق بـ "إزاحة خط المواجهة"، عبر تعديل "محتوى" موضوعات النزاع التي هي مصدر التمييز بين يمين/ يسار ـ أو بالأحرى بين صنوف اليمين وصنوف اليسار، التي هي اليوم شديدة التعدد والتداخل لدرجة أنه، حين تُستخدم تلك التصنيفات، لم يعد يبقى شيء يُذكر من قوة البرمجة والجدولة المتاحة في هذا النظام الكلاسيكي للإحداثيات.

الغريب في الأمر، أن هناك من يزعم أن من المستحيل القيام بتغيير هذه القوة الدافعة يمين/ يسار؛ إذ إنه محفور على الصخر، أو بالأحرى في قلوب كل المواطنين منذ قرنين من الزمن، وفي الوقت ذاته يعترف أن تلك التقسيمات عفا عليها الزمن. وهو ما يبرهن على أنه، في ظل غياب قوة دفع أخرى، يعود المرء دائمًا إلى تكرار التقسيم نفسه، تكرارًا يزداد حدة وإزعاجًا لا سيّما وأنه صار أقل وجاهة، مثل منشار كهربائي دائري يدور في الفضاء.

١١

مع ذلك، لا بد وأن هناك وسيلة ما لخلخلة تلك الصورة الذهنية لتشكيل الجمعية الوطنية[8] الشهير؛ حيث يصطف به

---

٨ يتكون مجلس النواب الفرنسي من مجلسَين تشريعيَين: مجلس الشيوخ «La chambre des sénats» والجمعية الوطنية «L'Assemblée nationale».

أولاً اليسار المتطرف، ثم اليسار، فالوسط، بعد ذلك اليمين، وانتهاءً باليمين المتطرف. كل هذا لأن النواب المنتخبين في عام ١٧٨٩ اعتادوا أن يصطفوا بهذا الشكل أمام رئيس الجلسة للتصويت على مسألة حق النقض الملكي.

بالرغم من كون هذا التدرج بدائيًا ونتيجة مصادفة مرتبطة بسياق ما، فإنه يتحكم في تنظيم كل الاستبيانات ـكل الأحاديث والخُطَب، وكل التصنيفاتـ وله دور في كل الانتخابات وكل السرديات التاريخية بل ويوجه ردود أفعالنا الأكثر عمقًا (٤٣). يا لَثقل تلك المفردات "اليمين" "اليسار"! يا لتدفق المشاعر الغزيرة حين نتفوه بمثل هذه الأحكام: "ولكنه من اليمين المتطرف"!، "انتبه، إنها يسارية"!

على الأقل في الوقت الراهن، لا يجد المرء الطريقة المناسبة للتخلص من مثل هذه الشحنة من الانفعالات. يجب أن يُوجه العمل العام صوب هدفٍ مقبول. وكون كلمة "تقدمي" موضع نقاش، فإنه من غير المحتمل النجاح في تعبئة أحدهم أيًا من كان إذا اقتُرح عليه العمل من أجل "الرجعية". مع "نهاية التقدم"، واحتمالية العيش في ظروف أقل ملاءمة من تلك التي عاش فيها جيل الآباء، وتعرض مشروع التعلم إلى التقلص، سيكون من الصعب بث الحماسة في نفوس الجماهير (٤٤).

تجتمع الأخيرة في غرفة بقصر بوربون «Palais Bourbon» تصطف بها مقاعد النواب على هيئة نصف دائرة، ومن هنا جاءت تسميتها بـ «L'Hémicycle».

إذا أراد المرء أن يُغَيِّر توجهه السياسي، ومن أجل خلق الاستمرارية بين النضالات الماضية والنضالات المستقبلية، فعلى الأرجح أنه من الحكمة ألا يبحث عن شيء أكثر تعقيدًا من التعارض بين لفظين [٤٥].

شيءٌ ليس أكثر تعقيدًا بالطبع، ولكنه ذو توجه آخر.

بالنظر إلى المثلث، نرى أنه من الممكن الاحتفاظ بمبدأ قوة دفع واحدة يمكن على امتدادها التميز بين "الرجعيين" و"التقدميين" (إن شئنا الاحتفاظ بهذه التسميات)، ولكن بشرط تعديل "محتوى" القضايا التي نريد الدفاع عنها.

على أي حال، فالبوصلة ليست أبدًا سوى إبرة مُمغنطة وكتلة مغناطيسية. إن ما ينبغي اكتشافه هو "الزاوية" التي تتخذها الإبرة و"تركيبة" هذه الكتلة.

الفرضية التي نقوم بها هنا مؤداها أن إبرة البوصلة قد دارت ٩٠° كي تتجه نحو ذلك الجاذب الجبار الذي يدهشنا اليوم بأصالته، والذي -بالرغم من المظاهر- لا يتمتع إطلاقًا بنفس خواص الجاذبين الآخرَين، وهما اللذان كانت السياسة قد استقرت بينهما منذ بداية ما يسمى بالعصر الحديث.

يصبح السؤال إذًا كالتالي: هل يمكن الاحتفاظ بمبدأ الصراع المتعلق بطبيعة الحياة العامة، ولكن مع تغيير وجهته كليًا؟

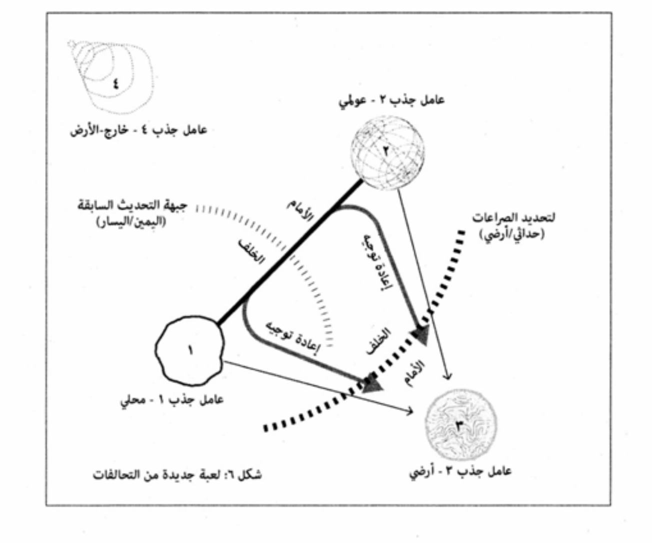
مع تغيير الوجهة نحو هذا الجاذب الثالث، ربما سيكون ممكنًا الفصل بين ما كان اليسار واليمين عليه في المجمل، في المحتوى والشكل، خلال حقبة الحداثة التي توشك على الانقضاء.

إن التمزق الذي تَسبَبَ به الجاذب الأرضي يوجب فتح هذه الحقيبة وإعادة النظر فيما كان متوقَعًا مما بداخلها قطعةً ـ وهي ما سنتعلم شيئًا فشيئًا تسميتها "حركة"، "خطوة للأمام" «Avancée»، وربما "تَقَّدم" «Progression»ـ وتلك التي تسير بوضوح في الاتجاه المعاكس ـ والتي سوف يكون من حقنا أن نسميها من الآن فصاعدًا "تراجع"، "تخلي"، "خيانة"، و"رجعية".

هذا هو الأمر الذي ربما سيعقد اللعبة السياسية، ولكنه سيتيح أيضًا هوامش لمناورات غير متوقعة.

يمكن الالتفات إلى الجاذب الأرضي انطلاقًا من الحلم بالوصول المستحيل إلى العالمي/ الكوكبي، حلم قد انتهى الآن (الضلع ٢ـ٣ من الرسم)، ولكن أيضًا انطلاقًا من أفق العودة إلى المحلي، وهو ما يظل بعيدًا (امتداد الضلع ١ـ٣).

تسمح الزاويتان بإلقاء الضوء على "المفاوضات" الشاقة التي سينبغي خوضها من أجل خلخلة مصالح أولئك الذين يواصلون الهرب نحو العالمي، وأولئك الذين يواصلون اللجوء إلى المحلي، وذلك بهدف اجتذابهم كي يشعروا بثقل هذا الجاذب الجديد (الشكل ٦) [٤٦].



شكل ٦: لعبة جديدة من التحالفات

شكل ٦ : لعبة جديدة من التحالفات

إذا أراد المرء الوصول إلى تعريف ـلا يزال مجردًا للغايةـ للسياسة الجديدة، فسيتوجب عليه التشبث بهذه المفاوضات. سينبغي البحث عن حلفاء في صفوف الناس الذين كانوا يُصنفون بوضوح باعتبارهم "رجعيين" وفقًا للتصنيف القديم. وبالطبع سيتطلب الأمر إقامة تحالفات مع أشخاصٍ كانوا يُصنفون، تبعًا للمعيار القديم، باعتبارهم "تقدميين" وربما أيضًا باعتبارهم ليبراليين، بل وكنيوليبراليين!

أي معجزةٍ تلك التي ستجعل عملية تغيير التوجه تنجح في ما فشلت فيه كل الجهود الرامية إلى "الخروج من التناقض يسار/ يمين" أو "تجاوز التقسيم" أو "البحث عن طريقٍ ثالث"؟

السبب بسيط ويتعلق بمفهوم التوجيه في حد ذاته. فعلى الرغم من المظاهر، فإن ما يهم في السياسة ليست الـ "مواقف"، وإنما شكل وثقل الـ "عالم"، اللذين تسعى هذه المواقف إلى مواجهتهما.

لقد اتجهت السياسة دومًا نحو أهداف، ورهانات، ومواقف، ومواد، وأجساد، ومشاهد، ومناطق. إن ما اصطُلح على تسميته بالقيم الواجب الدفاع عنها، هي دائمًا ردود فعل إزاء التحديات المرتبطة الاقتراب من أرض ما لتعريفها (٤٧). وهذا هو في الواقع الاكتشاف الحاسم للإيكولوجيا السياسية: إنها سياسة ـمُوَجَّهةـ نحو غاية (٤٨). غيّروا الأراضي، وبذلك ستغيّرون أيضًا المواقف.

يبدأ مؤشر البوصلة بالتحرك والدوران في كل الاتجاهات. ولكن إذا انتهى به الأمر إلى الاستقرار نحو اتجاهٍ ما، فذلك من جراء تأثير الكتلة المغناطيسية عليه.

لعل العامل الوحيد المشجع في الوضع الراهن هو أن ثمة قوة دفع أخرى بدأت شيئًا فشيئًا تكتسب بُعدًا واقعيًا. قد يمكن لقوة الدفع الحداثية/ الأرضية (الشكل٦) أن تصبح بديلاً مقبولاً، معاشًا، محسوسًا، للانقسام يسار/ يمين الذي ما زال حادًّا.

من السهل الإشارة إلى مَنْ سيمكن القبول بتسميتهم الخصوم الجدد: جميع هؤلاء الذين يستمرون في توجيه اهتمامهم نحو العوامل الجاذبة ١، ٢ وخاصةً ٤. يتعلق الأمر بثلاث

يوتوبيات، بالمعنى الاشتقاقي للكلمة: أي بأماكن دون "إطار جغرافي"، دون أرض ولا بقاع: المحليّ، العالميّ، وخارج-الأرض. غير أن هؤلاء الخصوم هم في الوقت نفسه "الحلفاء الوحيدون المحتملون". بالتالي، يجب إقناعهم وحثهم على تغيير مواقفهم.

إن الأولوية تتمثل في معرفة كيفية مخاطبة أولئك الذين يشعرون، عن حق، بأنهم مُتخلّى عنهم على إثر الخيانة التاريخية التي اقترفتها الطبقات المهيمنة، والذين يصرخون عاليًا مطالبين بتوفير مكان آمن لهم. وفقًا للمنطق (الهش) للرسم التوضيحي، فالأمر يتعلق باستقطاب الطاقات المتجهة نحو الجاذب المحلي وتحويل مسارها نحو الأرض.

إن الاقتلاع من الجذور لأمر غير مشروع، وليس الانتماء. كما رأينا، فالانتماء إلى أرضٍ، والرغبة في البقاء فيها، والاستمرار في رعايتها، والتعلق بها، لم يصبح أمرًا "رجعيًا"، إلا حين يقارَن في المقابل بالهروب إلى الأمام الذي فرضته العولمة. إذا كف المرء عن الهرب، فكيف تبدو الرغبة في البقاء؟

ينبغي أن ينصّب التفاوض -التآخي- بين أنصار المحلي وساكني الأرض على أهمية، ومشروعيّة، وضرورة الانتماء إلى أرض، ولكن، وهنا تكمن كل الصعوبة، دون أن يتم الخلط مباشَرةً بين الانتماء إلى أرضٍ وبين ما أضافه المحلي إليه:



التجانس العِرقي، التَّريث [9]«Patrimonialisation»، التاريخانيّة «Historicisme»، الحنين، الأصالة الزائفة.

على النقيض من ذلك، ليس ثمة ما هو أكثر جِدية، ما هو أكثر حضورًا، ودقة، وتقنية، واصطناعيّة (بالمعنى الإيجابي للكلمة)، ولا ما هو أقل خشونة وريفية، ما هو أكثر إبداعًا، ولا معاصرة من التفاوض بشأن الرسو على أرض.

لا يجب الخلط بين عودة الأرض و"العودة إلى الأرض" بذكراها الأليمة. هذا هو التحدي المتعلق بما يُسمى بالمناطق الواجب الدفاع عنها: إعادة تسييس مسألة الانتماء إلى الأرض.

إن التميز بين المحلي والأرضي، هذا التميز الذي تشكّل حديثًا، يكتسب أهمية متزايدة بحيث يجب أن تُنشَأ من الصفر الأماكن التي ستأتي كل أنماط المهاجرين للسكن فيها. في الوقت الذي يتميّز فيه المحلي عبر انغلاقه، يتميّز الأرضي عبر انفتاحه.

وهنا يأتي دور الجزء الآخر من التفاوض، ذاك الذي يتوجه إلى مَنْ يستبقون الأحداث في مسيرتهم لبلوغ العولمي. ومثلما يتعين التوصل إلى القدرة على توجيه الحاجة للحماية إلى حماية الأرض، يجب توضيح لأولئك الذين يندفعون نحو العولمةـناقص إلى أي حد تختلف الأخيرة عن بلوغ كوكب الأرض والعالم.

---

٩ من الحفاظ على التراث.

ذلك أن الأرضيّ مع تمسكه بقيمة الأرض والتربة، إلا أنه أيضًا "عالمي"، بمعنى أنه لا يتناسب مع أي حدود جغرافية، ويتجاوز حدود كل الهويات.

إنه بهذا المعنى حل مشكلة المكان التي أشرنا إليها أعلاه: ليس هناك أرض تتوافق مع الأفق اللانهائي للعالمي، ولكن في الوقت ذاته فإن المحلي ضيق للغاية، وضئيل للغاية، بحيث لا يستوعب تعددية الكائنات على وجه الأرض. وعليه فإن النظرة المقربة على المحلي والعالم باعتبارهما لقطات متوالية على نفس المسار لم يكن لها أبدًا أي معنى.

أيًّا ما كانت التحالفات الواجب إقامتها، فمن المؤكد أننا لن نكون قادرين على عقدها طالما استمرينا في الحديث عن سلوكيات، ومؤثرات، ومشاعر، ومواقف سياسية، في الوقت الذي تبدل فيه تمامًا العالم الواقعي الذي تقوم فيه السياسة اليوم.

بعبارةٍ أخرى، لقد "تأخرنا" في عملية تعديل وتحديث القوى المؤثرة في سياستنا. ولهذا السبب ينبغي إحياء هذه العملية ووضع الكتلة المغناطيسية الجديدة في مواجهة البوصلة التقليدية: ذلك لرؤية الاتجاه الذي سوف تشير إليه والكيفية التي ستتوزع بها مشاعرنا من جديد.

ليس هناك فائدة من إخفاء الصعوبات: ستكون المعركة قاسية. لقد أدى الوقت الضائع في مواصلة البحث عن قوة الدفع القديمة يمين/ يسار إلى تأخر عمليات التعبئة والمفاوضات الضرورية.

وهذا هو ما أبطأ صعود الأحزاب البيئية: لقد أرادت أن تتموضع "بين" اليمين واليسار أو أن تسعى لـ "تجاوز" الفجوة بين يمين/ يسار، دون أن تحدد مطلقًا المكان المُتَخيَّل حدوث مثل هذا "التجاوز" فيه. نظرًا لعدم انتحائها جانبًا، فقد وجدت هذه الأحزاب نفسها ممزقة بين الجاذبين اللذين باتا شيئًا فشيئًا فارغين من أي محتوى واقعي. لا عجب إذًا في أنه في كثير من الأحيان تعمل الأحزاب هي أيضًا دون إحراز أي تقدم.

ألم نبدأ نتبيّن، بشكلٍ يزداد وضوحًا كل يوم، مقدمات تشكُّل مؤثرًا جديدًا من شأنه إعادة توجيه القوى الراهنة بصورة دائمة؟ سنبدأ في التساؤل: هل نحن حداثيون أم أرضيون؟

سوف يقول علماء السياسية أن المرء لا يبتكر إطلاقًا توجهًا جديدًا بناءً على قيم أساسية مثل تلك التي تنطلق من اليسار إلى اليمين، وهو ما سوف يرد عليه المؤرخون على الأرجح بالقول: "هل كان هناك أناسًا "من اليمين" وآخرين "من اليسار" قبل القرن الثامن عشر"؟

المهم هو التمكن من تجاوز المأزق عبر تصور مجموعة من التحالفات الجديدة: "ألم تَنْتَمِ أبدًا إلى اليسار؟ لا بأس، ولا أنا، غير أني، مثلك، أنتمي إلى الأرض بصورةٍ جذرية"! ثمة مجموعة كاملة من المواقف التي ينبغي تَعَلُّم الاعتراف بها، قبل أن يكون داعمو "الحداثة المتطرفة" قد أفسدوا المشهد كليًّا...

١٢

ما يبرهن على أن التيار البيئي لم يتمكن حتى الآن من تقديم تعريف دقيق لذلك الفاعل السياسي شديد الأهمية: أي الأرضيّ، هو عجز هذا التيار عن حشد مناصرين له على مستوى التحديات. وما يثير دائمًا الدهشة هي الفجوة الملحوظة بين قوة الانفعالات التي أثارتها المسألة الاجتماعية منذ القرن التاسع عشر، وتلك التي أثارتها الحركات البيئية منذ انتهاء الحرب.

أحد المؤشرات الدقيقة على مثل هذه الفجوة هو الكتاب الرائع لـ "كارل بولاني": "التبدل الكبير" [٤٩]. إن ما يفطر القلب عند قراءة بولاني، ليس بالتأكيد الشعور بأن الكاتب قد خُدع حين ظنَّ أن أضرار الليبرالية قد ولت، بل إن هذه الأضرارَ لم يكن لها راعٍ سوى ما يمكن تسميته بـ "الجمود الكبير" للمعايير السياسية.

ونظرًا لكون إصدار هذا الكتاب يعود إلى عام ١٩٤٥، فالسبعون عامًا المنقضية منذ ذلك التاريخ تحدد بدقة المكانة، الفارغة للأسف، "للتحوُّل الكبير" الآخر، الذي كان يُمْكِن أن يحدث، لو أن الحركات البيئية حاولت أن تستعيد، وتضاعف، وتطيل من عمر الطاقة التي خلقتها النماذج المختلفة من الاشتراكيّات.

ولكن ذلك لم يحدث. ونتيجة لفشل الحركتين الاشتراكية والبيئية في الجمع بين قواهما بشكلٍ فعال، فبعد أن كانتا تسعيان إلى تحويل مجرى التاريخ، لم تستطعا سوى إبطاء مسيرته.

وإذا كانت هاتان الحركتان ضعيفتين فذلك لأنهما اعتقدتا أنهما أمام أحد خيارين، إما الانشغال بالقضايا الاجتماعية أو الانشغال بالقضايا البيئية، في حين كان هناك خيار آخر، أكثر حسمًا. كان هذا الخيار يشمل اتجاهين في السياسة: أحدهما يحدد المسألة الاجتماعية على نحوٍ مقيِد، والآخر يحدد رهانات البقاء دون أن يدرج اختلافات مسبقة بين أنواع الروابط التي تؤلف الهيئات الجماعية (٥١).

لا يستهدف هذان الاتجاهان أطرافًا ممثِلة لمجموعات متباينة. وكما تقول إحدى العبارات الشائعة، لا يتعين الاختيار بين أجور العمال ومصير العصافير الصغيرة، بل بين عالَمَين يوجد بكلٍ منهما أجور عمال وعصافير صغيرة، ولكن ثمة ما يجمع بينهما بصيغةٍ أخرى.

السؤال إذًا هو: لماذا لم تنشغل الحركة الاجتماعية من البداية بالقضايا البيئية كما لو كانت قضاياها الخاصة، الأمر الذي كان سينقذها من الاندثار، ويمكنها من تقديم يد المساعدة إلى الحركة البيئية التي كانت لا تزال ضعيفة؟ بعبارةٍ أخرى، لماذا لم تتمكن البيئة السياسية من أن تَخلِف الحركة الاجتماعية وتتولى مسؤولية القضية الاجتماعية؟

خلال السبعين سنة الأخيرة، التي يسميها المتخصصون فترة "التسارع العظيم"[٥١]«La Grande Accélération»، تبدّل كل شيء ـ انفلتت قوى السوق، وأثارت ردود فعل نظام الأرض «le système terre»ـ ورغم ذلك ظل تعريف السياسة التقدمية أو الرجعية مستندًا إلى محددٍ وحيد وأبدي ـ ألا وهو التحديث والتحرر.

فمن جهة، ثمة تغييرات كبيرة، ومن جهةٍ أخرى، هناك جمود تام في تعريف كلمة "الاشتراكية"، وتموضعها، والطموحات المرتبطة بها. فضلاً عن ذلك، ما واجهته النسويات من صعوباتٍ ضخمة من أجل فرض نضالاتهن، التي طالما اعتُبِرَت "هامشية" مقارنةً بالكفاح من أجل التغير الاجتماعي. يبدو الأمر كما لو أن البوصلة قد تعطلت [٥٢].

وبدلاً من ضم هذه النضالات داخل الحركة الاجتماعية، لم يحدث سوى تَحَمُّل تبعات التسارع العظيم، وسقوط الشيوعية، وانتصار العولمةـناقص، وتحجر الاشتراكية، في حالة من العجز شبه التام، لينتهي الأمر بمِزحة سخيفة أخيرة تمثّلت في انتخاب دونالد ترامب! وذلك قبل وقوع كوارث أخرى يرتعد المرء من توقع حدوثها.

خلال كل هذه الأحداث، توقف الأمر عند معارضة بالكاد خَفَّت حدتها بين الصراعات "الاجتماعية" والصراعات "البيئية".

كما لو كان الأمر يتعلق بكيانين مختلفَين، يُضطر المرء أن يظل حائرًا أمامهما بينما يتضور جوعًا وعطشًا، مثل "حمار بوريدان". غير أن الطبيعة ليست كيسًا من النخالة ولا المجتمع سطلاً من الماء... إذا كان الاختيار غير مطروح، فذلك لسببٍ بسيط وهو ألا يوجد بشر عراة من جهة، وأشياء غير بشرية من جهة أخرى.

إن علم البيئة ليس اسمًا لحزب، ولا حتى لنوع من الاهتمامات، بل هو دعوة لتغيير الاتجاه: "نحو الأرض".

١٣

كيف يمكن تفسير هذا الانقطاع في تعاقب موجات الاستياء والغضب الجماعي؟

يرجع السبب في ذلك إلى أن الحاجز القديم الذي كان يسمح بالتمييز بين "التقدميين" و"الرجعيين" كان يُعرَّف، منذ انبثاق "المسألة الاجتماعية" في القرن التاسع عشر، عبر مفاهيم متعلقة بـ "الطبقات الاجتماعية"، تنبع من وضع معين، كانت هذه الطبقات تشغله في ما كان يُسمى بـ "عملية الإنتاج".

لقد تشكلت السياسة حول هذه التناقضات بين الطبقات الاجتماعية، رغم كل الجهود المبذولة من أجل التقليل من حدتها، وحتى الزعم بأنه لم يعد لها معنى.

كانت قوة تفسيرات الحياة العامة المستندة على الصراع الطبقي تنبع من الطابع المادي، الملموس، التجريبي لتعريف الفئات المتناحرة. ولهذا وُصفت هذه التفسيرات بـ "المادية" وكانت مرهونة بما كان يُسمى بعلم اقتصادي ملتزم.

بالرغم من كل المراجعات، فقد كان هذا التفسير مفيدًا طوال القرن التاسع عشر. وحتى اليوم، ما زال يقوم بتعيين من "يتقدم" ومن "يخون قوى التقدم" (وإن كانت المواقف تتباين حسب ما إذا كان الحديث من منظور أخلاقي أو اقتصادي). إجمالاً، لقد ظللنا ماركسيين جدًّا.

إذا كانت هذه التعريفات قد أخذت تدور في الفراغ، فذلك لأن التحليل المرتكز على مفهوم الطبقات الاجتماعية من ناحية، والمادية التي جعلت هذا التحليل ممكنًا من ناحية أخرى، كان يتم تعريفهما بشكلٍ واضح عبر الجاذب الذي أسميناه في ما سبق بالعالمي، مقابل المحلي.

كانت الظواهر الكبرى المتمثلة في التصنيع، التمدن، واحتلال الأراضي المستعمرة تحدد أفقًا ـقاتمًا أو مشرقًا، لا يهمـ يعطي معنى للتقدم. وذلك لسبب وجيه: كان هذا التقدم ينتشل من الفقر المدقع، إن لم يكن من سيطرة حكامهم، مئات الملايين من البشر كانت كل حيَلهم ومناوراتهم محاولات للتحرر الذي بدا حتميًّا.

بالرغم من خلافاتهم المستمرة، لم تفعل أطياف اليمين وأطياف اليسار سوى التنافس من أجل معرفة مَن منهما

سيكون الأكثر تحديثًا؛ مَن منهما سيبلغ قبل الآخر هذا العالم العولمي. وظل الطرفان يتشاحنان من أجل معرفة ما إذا كان ينبغي القيام بالأمر عن طريق الإصلاح أم الثورة.

غير أنهما لم يأخذا قط الوقت الكافي كي يشرحا للشعوب السائرة على درب التحديث إلى أي عالمٍ بالتحديد سيقودهم التقدم في نهاية المطاف.

إن ما عجز اليمين واليسار عن التنبؤ به (وهو ما كان في وسعهما تمامًا التنبؤ به!) [٥٣]، هو أنه كلما فشلت الأرض في أن تجعل لهذا الأفق وجودًا ماديًا في الواقع، كان هذا الأفق سيتحول شيئًا فشيئًا إلى مجرد "أفق" فقط، مجرد فكرة منظِمة، نوع من اليوتوبيا التي تزداد غموضًا.

وهكذا وصلنا إلى حدث الـ ١٣ ديسمبر ٢٠١٥، واختتام أعمال الـ COP21 الذي سبق ذكره في بداية هذا البحث، والذي شهد ما يشبه تسليمًا نوعًا ما رسميًا بأنه لم تعد هناك الأرض التي تتلاءم مع أفق العولمي.

إذا كانت التحليلات المرتكزة على مفهوم الطبقية لم تمنح أبدًا، في نهاية الأمر، اليساريين القدرة على مقاومة أعدائهم لأجلٍ طويل ـوهذا ما يفسر إخفاق "بولاني" في توقعاته بشأن اندحار الليبرالية ـ فذلك لأن تعريفها للعالم المادي كان مجردًا للغاية، ومثاليًا للغاية، بل طوباويًا، لدرجة أنها أخفقت في التعامل مع الواقع الجديد.

لكي يكون المرء ماديًا، لا بد من وجود مادة؛ لكي يعطي تعريفًا اجتماعيًا للنشاط، لا بد من وجود عالم؛ لكي يشغل أرضًا، لا بد من وجود أرض، لكي ينخرط في "السياسة الواقعية" «Real Politik»، لا بد من وجود واقع.

ولكن طوال القرن العشرين، وفي وقتٍ تعددت فيه التحاليل والتجارب المرتكزة على التعريف الكلاسيكي لصراع الطبقات، حدث تبدل كبير، تقريبًا خلسة، في تعريف المادة، والعالم، والأرض التي يعتمد عليها كل شيء، وحدث ذلك دون أن يشكل موضع اهتمام كبير لدى اليساريين.

صار من الواجب إذًا تعريف الصراعات الطبقية بشكل أكثر واقعية، مع الأخذ في الحسبان هذه المادية الجديدة، وهذه النزعة المادية الجديدة، اللتين فرضهما التوجه الجديد نحو الأرض[٥٤].

إذا كان "بولاني" قد بالغ في تقديره لقدرات المجتمع على مواجهة السَلْعَنة «Marchandisation»، فذلك لأنه كان يُعَوّل على نجدة الجهات الفاعلة البشرية وحدها وعلى إدراكها لحدود السلعة والسوق. غير أن هذه الجهات لم تعد الأطراف الوحيدة المتمردة. إنّ ما لم يتمكن "بولاني" من التنبؤ به هو انضمام قوى هائلة للمقاومة، أُلقِيَ بها في قلب صراع الطبقات ولديها القدرة على تغيير تحديات هذا الصراع. لا يمكن أن تتغير نتيجة النزاعات إلا إذا أُسنِدَت مسؤولية النضال إلى جميع المتمردين، المتداخلين فيما بينهم.

إذا كانت مواقع الطبقات المسماة بالاجتماعية تتحدد في الماضي وفقًا لوضع كل منها داخل نظام الإنتاج، فمن الملاحظ الآن أن تعريف هذا النظام كان ضيقًا أكثر مما ينبغي.

لقد مضى وقت طويل بالطبع منذ أن أضاف المحللون إلى تعريفهم الضيق للطبقات الاجتماعية ترسانة متكاملة من القيم، والثقافات، والمواقف، والرموز، بغية تنقيح هذا التعريف وتفسير لماذا لم تكن المجموعات تسعى دومًا وراء "مصالحها الموضوعية". ورغم هذا، فحتى مع إضافة "ثقافات الطبقات" إلى "مصالح الطبقات"، لا تجد هذه المجموعات حولها أراضيَ مأهولةً بالسكان بالقدر الذي يمكنها من بدء مسيرة مرتكزة على واقع ومن اكتساب وعي بذاتها. لذا، يظل تعريفهم اجتماعيًّا، اجتماعيًّا أكثر مما يجب (٥٥).

تحت صراع الطبقات، هناك تصنيفات أخرى. تحت السلطة، هناك سلطات أخرى. تحت المادة، هناك مواد أخرى.

لقد بَيَّن "تيموثي ميتشيل" أن الاقتصاد المعتمد على الفحم لطالما أثَّرَ بشكلٍ حاسمٍ في الصراع الطبقي، حتى إن تَحَوُّله إلى اقتصادٍ معتمد على النفط مكّنَ الطبقات المهيمنة من كسب الصراع (٥٦). ومع ذلك، فقد ظلت الطبقات الاجتماعية، وفقًا للتعريف التقليدي لها، على ما هي عليه: هناك دائمًا عمال تدافع عن حقوقهم نقابات.

نعم، غير أن الطبقات التي يتم تعريفها من منطلق علاقتها بالأرض لا تُصنَّف بالطريقة ذاتها. لقد اختفت إمكانية قيام

عمال المناجم بتعطيل الإنتاج، بالتشاور فيما بينهم في قاع المناجم بعيدًا عن أنظار المراقبين، بالتحالف مع عمال السكك الحديدية القريبين من مواقع نفايات المناجم، بإرسال زوجاتهم للتظاهر أمام نافذة رب عملهم، اختفى كل هذا مع اكتشاف البترول الذي يتحكم فيه بعض المهندسين المغتربين، في بلدانٍ بعيدة، تقوم بإدارة شؤونها نخب صغيرة وسهلة الإفساد، ويتدفق منتجها من خلال خطوط أنابيب نفطية يتم إصلاحها بسرعة. كانت الأعداء ظاهرة في عصر الفحم، وغدت باطنة في عصر البترول.

لا يشير "ميتشيل" إلى "البعد المكاني" للنضالات العمالية فحسب؛ إذ إن ذلك لأمر بديهي. إنما يجذب الانتباه إلى ما فعله الاعتماد على الفحم أو على البترول بالأرض، بالعمال، بالمهندسين وبالشركات [٥٧]. ويستخلص من ذلك نتيجة لا تخلو من مفارقة، ومفادها أنه منذ نهاية الحرب، وبفضل البترول، دخلنا في حقبة اقتصاد يظن أن بوسعه تجاوز أي حدود مادية!

ذلك أن الصراع الطبقي يعتمد على "جيو-لوجيا"[٩] «géo-logie».

إن البادئة "جيو" لا تجعل مئة وخمسين عامًا من التحليل الماركسي أو المادي غير مواكبة للعصر، بل على العكس تفرض

---

١٠ يفصل الكاتب بهذا الشكل بين جزئي مفردة «géologie» التي تكتب كلمة واحدة، وتعني علم بناء كوكب الأرض، وذلك للإشارة إلى أصل الكلمة ودلالته. يعود أصل جزئيها إلى اللغة اليونانية: البادئة «géo» تعني "الأرض"، واللاحقة «logie» تعني "علم".

استئناف المسألة الاجتماعية ولكن بعد تدعيمها بالجيوسياسة الجديدة.

بما إن خارطة نضالات الطبقات الاجتماعية ما تنفك تتقلص في الحياة السياسية ـ لم يعد في وسع المحللين سوى النحيب والشكوى من أن الناس لم يعودوا يسيرون في طريق حماية مصالحهم الطبقية ـ لهذا ينبغي التوصل إلى رسم خارطة لصراعات المناطق الجيو ـ اجتماعية من أجل تحديد مصالحها الفعلية، ومع مَن ستتحالف، وضد مَن ستقاتل [٥٨].

كان القرن التاسع عشر عصر المسألة الاجتماعية، أما القرن الواحد والعشرون فهو عصر المسألة الجيو ـ اجتماعية الجديدة.

إن لم تتمكن الأحزاب اليسارية من تغيير الخرائط، فسوف تصبح شبيهة بشجيرات خشب البقس بعد أن تعرضت لهجوم من حشرة العثة: لن يتبق منها سوى غمامة من الغبار يجب حرقها.

إن الصعوبة تكمن في إيجاد المبادئ التي ستسمح بتعريف هذه الطبقات الجديدة ورسم خطوط الصراع بين مصالحها المتباينة، ينبغي تعلم أخذ الحذر من تعريفات المادة، ونظام الإنتاج، بل وحتى تعيين المحددات في الزمان والمكان، التي كانت قد ساهمت في تعريف الطبقات الاجتماعية وفي النضالات البيئية على حد سواء.

في الواقع، إحدى غرائب العصر الحديث هو أنه تعريفه للمادة يتسم بقصور شديد في تناوله للبُعْدَين المادي والأرضي. فهذا التعريف يُمجّد واقعية لم يستطع قَط وضعها قيد التنفيذ. كيف يمكن وصفهم بالماديين أولئك الذين يقومون بالانزلاق بطريق الخطأ داخل كوكب درجة حرارته ٣.٥ مئوية، أو مَن يجعلون مواطنيهم عُرضة للانقراض السادس، دون حتى أن يلحظوا ذلك؟

يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكن حين يتحدث الحداثيون في السياسة، لا يعرف المرء أبدًا في أي إطار عملي يضعون فيه هذه الممارسات.

على كل حال، إن "التحليل الملموس للوضع الملموس"، كما قال لينين، ليس كافيًا أبدًا. لطالما ما قالت البيئة للاشتراكيين: "السادة والسيدات الماديين، لا تزال هناك حاجة إلى بذل المزيد من الجهد كي تصيروا في نهاية الأمر ماديين"!

١٤

إذا كان المزج ـبالمعنى المرتبط بحروب الثورة[١١]ـ بين المحاربين القدامى للنضال الطبقي والمجندين الجدد في خدمة الصراعات الجيوـاجتماعية غير ممكن فيما مضى، فذلك خطأ

---

١١ المقصود بحروب الثورة «Les guerres de la Révolution» هي الصراعات التي خاضتها فرنسا، بعد ثورة ١٧٨٩، ضد دول أوربية أخرى متحالفة.

يعود إلى الدور الذي منحه الجانبان "للطبيعة". ها هي إحدى الحالات التي تقوم فيها الأفكار حرفيًا بإرشاد العالم.

ثمة مفهوم محدد لل "طبيعة" سمح للحداثيين باحتلال الأرض بطريقة منعوا بها الآخرين من السكن في أراضيهم الخاصة.

وهكذا، فمن أجل ممارسة السياسة ينبغي وجود أفراد ممثلين لها يربطون مصالحهم بقدراتهم على الفعل. ولكن لا يمكنكم إقامة تحالفات بين فاعلين سياسيين وأشياء خارج المجتمع ولا تملك القدرة على الفعل. تلك هي المعضلة التي يشير إليها الشعار العبقري الذي أطلقه المناضلون من أنصار حركة «ZAD»، الـ «zadistes[11]»: "نحن لا ندافع عن الطبيعة، نحن الطبيعة التي تدافع عن نفسها" [(٥٩)].

غير أن الشكل الخارجي الذي يُنسِب للأشياء ليس إحدى معطيات التجربة، بل إنه نتيجة لتاريخ سياسي-علمي شديد الخصوصية، ينبغي اختباره لفترة وجيزة كي تستعيد السياسة هوامش المناورة.

---

١٢ كلمة «zadiste» هي مفردة مستحدثة في المصطلحات المتعلقة بالنضال في اللغة الفرنسية، نسبةً إلى «ZAD» (اختصار مصطلح مستحدث في المجال العسكري «Zone à défendre» بمعنى "منطقة واجب الدفاع عنها". وفي سياق التطوير العمراني، يشير هذا الاختصار إلى «Zone d'aménagement différé»: أي منطقة من المزمع تطويرها لاحقًا. وقد حدث تحوير للمعنى الأخير في سياق الحفاظ على البيئة، وبدأ استخدام «ZAD» منذ ٢٠١٠ للإشارة إلى أراض زراعية أو مناطق ذات أهمية بيئية، يقوم باحتلالها مناضلون من أجل الحفاظ على مثل هذه المناطق ويُطلق عليهم «zadiste»، تعبيرًا عن رفضهم لسياسة إقامة مشروعات تطوير عمرانية بها.

من المؤكد أن مسألة العلوم تحتل موقعًا مركزيًا في عملية مسح الأراضي. ماذا كنا سنعرف عن النظام المناخي الجديد بدونها، وكيف ننسى أنها صارت الهدف المفضل لهجوم لُمنكَري-التغير المناخي؟

لكن لا بد من معرفة كيفية استيعاب هذه العلوم. إذا سَلَّم المرء بنظريات المعرفة الشائعة دون مناقشتها، فسوف ينتهي به الأمر حبيس لمفهوم عن الـ "طبيعة" يستحيل تسييسه إذ إنه قد ابتُكر بالتحديد من أجل تقييد النشاط الإنساني، بفضل نداء قوانين الطبيعة الموضوعية التي لا يمكن مناقشتها. الحرية من جهة، والضرورة القصوى من جهةٍ أخرى: هذا ما يسمح باللعب على الحبلين [٦٠]. في كل مرة سيرغب المرء في الاعتماد على قوة فاعلين آخرين، سيواجه باعتراض: "أنتم لم تفكروا بالأمر جيدًا، هؤلاء هم مجرد أشياء، لا يستطيعون التفاعل"، مثلما كان "ديكارت" يقول عن الحيوانات أنها لا تشعر بالمعاناة.

ولكن إذا ادعى المرء معارضته "للعقلانية العلمية" بابتكاره طريقة أكثر حميمية، أكثر ذاتية، أكثر تجذرًا، أكثر عولمة، أكثر "بيئيّة" إن شئنا، من أجل إدراك وفهم الروابط القائمة بيننا وبين الـ "طبيعة"، فسيخسر على الحبلين: سيحتفظ بفكرة عن "طبيعة" تقليدية، وسيخسر فرص الاستفادة من إضافة العلوم الوضعية.

ما يلزمنا هو أن نعتمد على قدرة العلوم بأكملها، ولكن بدون إيديولوجية الـ "طبيعة" التي أُلحقت بها. يجب أن نكون

ماديين وعقلانيين، ولكن بأن ننقل هذه المميزات إلى التربة المناسبة.

تكمن الصعوبة في كون الأرضي لا يعني إطلاقًا الكرة الأرضية. ومن المستحيل أن يكون المرء ماديًا وعقلانيًا بنفس الطريقة على الصعيدين.

كخطوة أولى، من الواضح أنه لا يمكن الإشادة بالعقلانية دون الاعتراف بأنه أُسيء استخدامها خلال السعي إلى تحقيق العولمي.

كيف يمكن اعتبار مشروع تحديث "واقعيًا"، وقد "نسي"، منذ قرنين من الزمن، أن يتنبأ بآثار الممارسات البشرية على الكرة الأرضية؟ كيف يمكن أن تُعتبر "موضوعية" نظريات اقتصادية عاجزة عن أن تأخذ في حساباتها ندرة الموارد مع أن هدفها كان التنبؤ بنضوب هذه الموارد [٦١]؟ كيف يمكننا الحديث عن "الكفاءة" حين يتعلق الأمر بنظم تقنية فشلت في أن تُضمِّن في خططها ما يسمح لها بالبقاء لمدى زمني يتجاوز بضعة عقود؟ كيف يمكن أن نطلق صفة "العقلانية" على نموذج للحضارة مُدان، فقد أخطأ في توقعاته بصورة كارثية لدرجة أنها حرمت آباءً من أن يتركوا لأبنائهم عالمًا مأهولاً [٦٢]؟

ليس غريبًا أن تصير كلمة العقلانية مخيفة بعض الشيء. وقبل أن نوجه أصابع الاتهام للناس العاديين بعدم إعطائهم أي قيمة للأعمال التي يريد من يُسمون بالعقلانيين إقناعهم بها،

فلنتذكر أنه إذا كان هؤلاء الناس قد فقدوا الحس السليم، فذلك لأنهم تعرضوا لخيانةٍ عظمى.

من أجل إعادة معنى إيجابي لكلمات "واقعية"، "موضوعي"، "فعال"، أو "عقلاني"، فيجب الكف عن توجيهها نحو العولمي؛ حيث فشلت بوضوح في مهمتها، وتوجيهها نحو الأرضي.

كيف يمكن تعريف هذا الاختلاف في التوجّه؟ يكاد القُطبان أن يتطابقان، فالعولمي يسيطر على كل الأشياء من منظور شديد البعد، كما لو كانت خارج حدود العالم الاجتماعي ولا تقيم أي وزن لهموم البشر. والأرضي يسيطر على الأشياء ذاتها، ولكن من منظور قريب منها، وباعتبارها موجودة داخل الجماعات وتملك حساسية لأفعال البشر وتتفاعل بشدة معها. إنهما نسختان مختلفتان للغاية من الطرق التي يستخدمها هؤلاء العلماء للعيش في الواقع، كما يقال.

يتعلق الأمر إذاً بتصورٍ جديد لترتيب المجازات، الحساسيات، بحالةٍ جديدة من التعطش إلى المعرفة أو "شهوة العقل" «libido sciendi»، كلها ضرورية لإعادة التوجيه ولاستئناف التعاطي مع المؤثرات السياسية.

يجب اعتبار العولمي ك "انحدار" للكرة الأرضية، انتهى بإفساد طريق الوصول إليها. فماذا حدث إذاً؟

يعود الفضل في بذوخ هذه الفكرة، الثورية بالطبع، إلى نشأة العلوم الحديثة، والتي تدعو إلى التعامل مع الأرض

بوصفها كوكبًا ضمن كواكب أخرى، تسبح داخل كونٍ لا نهائي من الأجسام المتشابهة. هذا ما يُسمى، لتبسيط الأمور، باكتشاف "العناصر الجاليلية" (٦٣).

شكلت هذه الرؤية الكوكبية نقلةً علمية هائلة. فقد حددت هذه الرؤية الكرة الأرضية، تلك التي تظهر في رسم الخرائط، والتي ارتبطت بها بدايات علوم الأرض. كما أنها فتحت المجال أمام العلم الفيزيائي.

ولكن للأسف، من السهل جدًّا تحريف هذه الرؤية الكوكبية. بما أنه يُمكن، انطلاقًا من الأرض، إدراك كون هذا الكوكب جسمًا يقع بين جسوم أخرى تقع بدورها في الكون اللانهائي، فستستنتج بعض العقول من ذلك أنه من الضروري الانطلاق افتراضيًّا من الكون اللانهائي وتَبَنّي وجهة نظره باعتبارها مدخلاً لاستيعاب ما يحدث على هذا الكوكب.

إن التمكن من بلوغ مناطق سحيقة في الكون انطلاقًا من الأرض يصبح مُلزِمًا ببلوغ الأرض انطلاقًا من زوايا الكون القَصِيّة.

لا شيء يُجبر على التوصل إلى هذا الاستنتاج الذي سوف يبقى دائمًا من الناحية العملية زاخرًا بالتناقضات: إن غرف العمل والدراسة، الجامعات، المختبرات، الأجهزة والأدوات، الأكاديميات، باختصار، كل دوائر إنتاج المعارف والتصديق على صحتها لم تغادر قَط الأرض القديمة (٦٤). وبقدر ما يُحلّق

العلماء بأفكارهم بعيدًا عن الأرض، تظل أقدامهم على الدوام راسخة في الطين.

وبالرغم من ذلك، ستتحول هذه النظرة المنطلقة من الكون ـالنظرة انطلاقًا من لا مكانـ إلى الحس الشائع الجديد الذي ستلتصق به على الدوام لفظتا "عقلاني" بل و"علمي" (٦٥).

وانطلاقًا من هذا الخارج المهول، فستجد الأرض القديمة البدائية نفسها من الآن فصاعدًا محل دراسة، وتقييم ومحاسبة. ما لم يكن سوى مجرد فرضيّة أصبح، بالنسبة لأعظم العقول ولأصغرها على السواء، مشروعًا مثيرًا للحماس: المعرفة، هي أن تعرف من الخارج. يجب النظر لكل شيءٍ انطلاقًا من نجمة الشِعرَى اليَمَانِيَّة "سيريوس" «Sirius»ـ سيريوس الخيال، الذي لم يبلغه أحد قط.

فضلاً عن هذا، فإن تعزيز مكانة الأرض كونها كوكبًا باعتباره جزءًا من الكون اللامتناهي، جسمًا من بين الجسوم، شابه عيب أنه حَصَرَ في بضع حركات مجموعة واسعة من الحركات والأنشطة التي تناولتها العلوم الوضعية ـ في بداية الثورة العلمية، تم حصر تلك الحركات في حركةٍ واحدة: سقوط الجسوم (٦٦).

ولكن بالنظر إلى الأرض من الداخل يوضح العديد من الأشكال الأخرى من الحركات التي كانت تحدث عليها لدرجة أنه صار من الصعب أخذها في الحسبان. وتدريجيًا، لن نعرف ماذا نفعل بتشكيلة ضخمة من التحولات، إذا اختبرناها من

منظور المعارف المثبتة: تكوين، ميلاد، نمو، حياة، موت، فساد، تبدلات.

سيضفي الانعطاف خارج الأرض لإدراكها التباسًا وغموضًا على مفهوم "الطبيعة"، وهو ما لم نخرج منه حتى الآن.

بينما استطاع هذا المفهوم، حتى القرن السادس عشر، أن يشمل قدرًا كبيرًا من الحركات ـهذا هو المعنى الاشتقاقي لكلمة "ناتورا" «natura» اللاتينية أو لكلمة "فوسيس" «phusis» الإغريقية، والذي يمكن ترجمته بـ: منشأ، إحداث، سيرورة، مجرى الأحداثـ سيتم تخصيص كلمة "طبيعي" على نحو متزايد للإشارة إلى ما يسمح بتتبع نوعٍ واحد من الحركات، منظورًا إليه من الخارج. هذا هو المعنى الذي ستشير إليه هذه المفردة في مصطلح "علوم الطبيعة".

لم تكن ستحدث أي مشكلة، لو كان استعمال هذه الكلمة قد اقتصر على علوم الكون، كما سنقترح لاحقًا: أي على الفضاءات اللانهائية التي تم اكتشاف وجودها انطلاقًا من سطح الأرض، فقط عن طريق الأجهزة العلمية والحسابات. ولكن كانت هنالك رغبة في القيام بما هو أكثر من ذلك. لقد أرادوا أن يعرفوا أيضًا وبنفس تلك الطريقة كل ما يجري على الأرض كما لو كان يتعين النظر إليها ودراستها من بعيد.

بينما كانت هنالك سلسلة ممتدة من الظواهر التي لم تكن تحتاج سوى الإحاطة بها عبر العلوم الوضعية، ابتُعِدَ عنها

بشكل متعمد إلى درجة أن وصل الأمر، وبنوع من التزهد السادي، إلى عدم ملاحظة أيٍّ من الحركات الممكن الوصول إليها باستثناء تلك التي كان يمكن مشاهدتها انطلاقًا من نجمة سيريوس.

كان ينبغي أن تتطابق كل حركة مع نموذج الأجسام الساقطة. وهو ما يُطلق عليه "الرؤية الميكانيكية" للعالم، نسبةً لاستعارة لغوية غريبة مأخوذة من فكرة غير دقيقة عن الطريقة التي تعمل بها الآلات الحقيقية (٦٧).

وصارت الحركات الأخرى جميعها موضع شك. طالما كان النظر إليها انطلاقًا من الداخل: أي على الأرض، فلم يكن من الممكن اعتبارها علمية؛ بل لم يكن ممكنًا اعتبارها بالفعل واحدةً من حركات الطبيعة على الأرض.

من هنا ظهر الانقسام الكلاسيكي بين معارف شوهدت من بعيد ولكنها مؤكدة، وتخيلات لأشياء كانت تُرى عن كثب، ولكن ليس لها سند من الواقع: على أسوأ تقدير، مثل حكايات خيالية بسيطة تقصُّها مربية أطفال، وعلى أفضل تقدير، مثل أساطير قديمة، لا يُستهان بها ولكنها دون محتوى قابل للتحقق منه.

إن كان الكوكب قد ابتعد في نهاية الأمر عن الأرضي، فذلك لأن كل شيء حدث كما لو كانت الطبيعة منظورًا إليها من الكون قد بدأت شيئًا فشيئًا تحل محل الطبيعة منظورًا إليها من الأرض، وأخذت تدريجيًّا تغطيها وتطردها، تلك التي

تستوعب، والتي كان بإمكانها بل ويتحتم عليها الاستمرار في استيعاب جميع ظواهر الخلق، من الداخل.

سوف يشغل الاكتشاف الجاليلي العظيم اهتمام الجميع بصورة جعلتهم ينسون أن رؤية الأرض انطلاقًا من سيريوس ليست سوى جزء بسيط -حتى وإن كان جزءًا من الكون اللانهائي!- مما يحق للمرء معرفته بشكل مؤكد.

النتيجة الحتمية: بدأنا لا نرى شيئًا يُذكر مما يحدث على الأرض.

قطعًا، حين ينظر المرء إلى الأرض انطلاقًا من سيريوس، يخاطر بأن يفوته الكثير من الأحداث، إذ ينشغل بأوهامٍ عديدة حول عقلانية أو لا عقلانية كوكب الأرض!

إذا تذكرنا كل الغرائب التي تخيل سكان الأرض، منذ ثلاثة أو أربعة قرون، رؤيتها على الكوكب الأحمر قبل أن يدركوا أخطاءهم، فلن نندهش من كل الأخطاء التي ارتُكبت، منذ ثلاثة أو أربعة قرون، بشأن مصير الحضارات الأرضية منظورًا إليها من سيريوس!

أتتساوى المثل العليا للعقلانية مع الاتهامات الموجهة ضد الأرض وسكانها باللاعقلانية؟ لا تخلو مسيرة أي من الطرفين من العديد من التقديرات الخاطئة بشأن إقامة مشاريع مستحيلة، من العديد من التصورات المغلوطة المبنية على أوهام، من العديد من "القنوات المائية الموجودة على سطح المريخ"...

١٥

لم يكن شرخ كهذا بين الواقع الخارجي ـالموضوعي والقابل للإدراكـ والداخل ـاللاواقعي، الذاتي وغير القابل للإدراكـ سيفزع أحدًا، أو كان سيُعتبر مجرد مبالغة بسيطة من قِبَل علماء ليسوا على دراية كافية بما يحدث في الحياة على الأرض، لو لم يتقاطع هذا الشرخ مع المحدد الشهير للتحديث الذي أشرنا إليه أعلاه [٦٨].

عند هذه النقطة، سيتباعد كليًّا المعنيان الإيجابي والسلبي لكلمة "العالمي".

سيتم دمج الذاتي مع العتيق والبالي، والموضوعي مع الحداثي والتقدمي. لن تنطوي بعد الآن رؤية الأشياء من الداخل على أي ميزة سوى اهتمامها بالعودة إلى التقليد، إلى الحميمي، إلى العريق. في المقابل، ستصبح رؤية الأشياء من الخارج الوسيلة الوحيدة لاستيعاب الواقع، وخاصةً، للتوجه نحو المستقبل.

إن هذا الشقاق العنيف هو ما كان يضفي تماسكًا ـإن جاز القولـ على وهم العولمي باعتباره أفقًا للحداثة. وكان يتوجب على المرء من الآن فصاعدًا الانتقال افتراضيًّا بكامل عدته (حتى وإن ظلَّ في مكانه) من المواقف الذاتية والحساسة، إلى وحدها

المواقف الموضوعية، بعد أن تخلصت أخيرًا من أي حساسية ـ أو بالأحرى من أي عاطفيَّة.

هنا يظهر، بالتعارض مع العالمي، الوجه التفاعلي، الانعكاسي، الذي يشعر بالحنين، للمحلي (انظر الشكل١).

لقد صار فقدان الحساسية إزاء الطبيعة بوصفها سيرورة ـ بالمعنى القديم للكلمةـ هو الوسيلة الوحيدة للتعاطي مع الطبيعة بوصفها كونًا لا نهائيًا، حسب التعريف الجديد [٦٩]. كان إحراز تقدم على طريق الحداثة يعني اقتلاع الجذور من الأرض الأصلية والانطلاق للوصول إلى الخارج الكبير: أي التحول إلى طبيعي، أو على الأقل مناصر للطبيعة [٧٠].

وفيما يبدو كشططٍ غريب في صور المجاز في فعل الولادة، كان الأمر يعني الكف عن الاعتماد على تلك الأشكال القديمة للخلق الذي كان سيسمح "أخيرًا بقدوم ومولد الحداثة".

وكما بيّنت النسويات في تحليلاتهن لمحاكمات الساحرات، فإن كراهية عدد كبير من القيم النسوية ستنبع من هذا التحول التراجيدي، الذي يجعل كل صور الانتماء إلى الأرض القديم مثارًا للسخرية [٧١]. كان الهرب من هذا الانتماء إلى الحقل بمثابة قول: "غَطّي هذا الصدر الذي لا أريد رؤيته"[١٢]!

بعد ذلك، سيتم فرض هذا الانتقال الكبير ـ"الإحلال الكبير" الفعلي الوحيد [٧٢]ـ على العالم أجمعه الذي سيصبح

---

١٣ جاءت هذه العبارة على لسان بطل مسرحية *Tartuffe* للكاتب الفرنسي موليير، والتي يحمل عنوان المسرحية اسمه. تتضمن هذه الجملة صورة بلاغية تتمثل في أن يقول المتكلم عكس ما يرمي إليه.

مشهدًا للحداثة-ناقص حالما يتم القضاء نهائيًا على الانتماءات الأخيرة إلى المفهوم القديم للطبيعة-السيرورة.

هذا هو معنى التعبير الذي غدا اليوم باليًا، ولكن الذي لا تزال أصداؤه تتردد في كل مرةٍ يُثار فيها الحديث عن التطور، عن النمو، وعن المستقبل: "سنقوم بتحديث الكوكب السائر على درب الاندماج...".

أما الحديث عن "الطبيعة"، ولكن من مسافةٍ بعيدة؛ أو التواجد قريبًا منها، ولكن مع الاكتفاء بالتعبير عن المشاعر. تلك هي نتيجة الخلط بين الرؤية الكوكبية والأرضي. حين يُنظر إلى الأمور "من أعلى"، يمكن أن يُقال إن الكوكب كان دومًا متغيرًا، وأنه سيظل باقيًا لمدة طويلة بعد فناء البشر، هذا ما يسمح باعتبار النظام المناخي الجديد مجرد تذبذب لا قيمة له. فالأرضي لا يسمح بهذا النوع من الانفصال [٧٣].

حينئذٍ يُمكن بسهولة تفهُّم استحالة إعطاء وصف دقيق إلى حدٍّ ما للصراعات من أجل الأرض، وضرورة تعلم إبطال السحر عن مفهوم الـ "طبيعة"، الذي يزعم استيعاب هذين الجاذبين.

حين تسعى الأحزاب المسماة بالـ "بيئية" إلى جذب اهتمام الناس نحو ما يجري "للطبيعة" التي يزعمون "حمايتها"، إذا كان المقصود بهذه الكلمة هو الطبيعة-الكون منظورًا إليها من أي نقطة، باعتبارها تمتد من خلايا أجسادنا حتى أبعد المجرات، فسوف يكون الرد ببساطة: "هذا بعيدٌ للغاية.. هذا في منتهى

الغموض.. هذا أمرٌ لا يعنينا.. الأمر لا يستحق أن نعيره اهتمامنا"!

وسوف نكون محقين. لن تحدث أي خطوة إلى الأمام نحو "سياسة الطبيعة" طالما استمرت هذه المفردة تُستخدم للإشارة مثلاً إلى بحثٍ عن الجاذبيّة الأرضية، عن تصنيف ٣٥٠٠ كوكب خارجي مكتشف حتى اليوم، عن رصد موجات الجاذبية، دور الديدان الأرضية في تهوية التربة، رد فعل الرعاة في جبال "البيرينيه" «Pyrénées» الفرنسية إزاء إعادة الدببة إلى هذه المناطق، أو رد فعل البكتيريا الموجودة في أمعائنا عند تناولنا لطبق "كرشة على طريقة كان"[١٤]... إن تلك الطبيعة بالفعل بمثابة وعاء جامع لكل شيء.

لا يستحق الأمر عناء الذهاب بعيدًا للقيام بعمليات تعبئة، تعاني من بطء وتيرتها، من أجل الطبيعة-الكون. فالقضية عاجزة تمامًا عن صب الماء في طاحونة السياسة. وتصدير هذا النوع من الكائنات -العناصر الجاليلية- باعتبارها نموذجًا لما سيقوم بحشدنا لخوض الصراعات الجيو-سياسية مصيره الفشل. كما أن محاولة توظيف تلك الطبيعة في الصراع الطبقية لَهِيَ أشبه بغَمْس القدمين في الإسمنت استعدادًا للسير بصورة أفضل أثناء التظاهر...

---

١٤ "كرشة على طريقة كان" «Tripes à la mode de Caen» هي أكلة تقليدية تشتهر بها مدينة «Caen» الفرنسية.

لكي يمكن البدء في وصف حالة الأرض على نحوٍ موضوعي، عقلاني، فعال، ورسم صورة واقعية لها، هناك حاجة إلى العلوم كافة، ولكن بترتيب مواقعهم بطريقةٍ أخرى.

بعبارةٍ أخرى، ليس مجديًا أن ينتقل المرء آنيًّا إلى سيريوس كي يكون المرء عالمًا. كما أنه ليس ضروريًّا التخلي عن العقلانية من أجل أضفاء مشاعر على المعرفة الباردة. ينبغي الشروع في الملاحظة ببرود قدر المستطاع للنشاط الساخن للأرض، وقد صار ممكنًا مراقبته أخيرًا عن كثب.

١٦

يتوقف كل شيء، بالطبع، على المعنى المقصود من "نشاط ساخن". ليس من الصعب استيعاب أن هذه السخونة وهذا النشاط، منظورًا إليهما انطلاقًا من الطبيعةـالكون، يبدوان أوهامًا ذاتية، مجرد إسقاط لمشاعر على "طبيعة" محايدة باردة.

ولهذا، فإن الاقتصاد حين شرع، بدءًا من القرن السابع عشر، في إدخال "الطبيعة" في نطاقه، لم تبدُ في نظر العلماء سوى "عامل إنتاجٍ"، مورد بالفعل خارجي، مستقل عن أفعالنا، شوهد عن بعد من قبل غرباء يسعون وراء غايات لا علاقة لها بالأرض.

داخل ما يُسمي بنظام الإنتاج، كان من السهل تحديد سواء العناصر البشرية ـالعمال، الرأسماليين، الحكوماتـ أو

البِنى التحتية اصطناعية ـالآلات، المصانع، المدن، الأراضي ـ ولكن كان من المستحيل اعتبار الكائنات التي صارت في تلك الأثناء "طبيعية" (منظورًا إليها انطلاقًا من سيريوس) وسطاء، باعتبارها عناصر فاعلة، أو عناصر متحركة، أو عناصر عاملة ومؤثرة على نفس المستوى.

كان ثمة شعور غامض بأن كل الأمور الأخرى تعتمد عليهم، وأنهم حتمًا كانوا سيتصرفون كما ينبغي، إلا أن امتصاص الطبيعة ـالكون للطبيعة ـ السيرورة كان قد أفقد أولئك الذين كانوا يقومون بالاستيلاء على هذه الموارد ـأحيانًا وهم يرتجفون ـ الكلمات، المفاهيم، الاتجاهات.

كان من الممكن بالطبع القيام بالبحث في أرشيفات الشعوب الأخرى لاكتشاف مواقف، أساطير، طقوس لم يكن لديها أي دراية عن فكرة "الموارد" أو "الإنتاج"، ولكن كل ذلك لم يكن يُعتبر، آنذاك، سوى بقايا أشكال قديمة من الذاتية، وثقافات بائدة، تجاوزتها جبهة التحديث بلا رجعة [٧٤]. إنها بالتأكيد شهادات مؤثرة، ولكنها لا تصلح سوى للعرض في المتاحف الإثنوجرافية.

اليوم فقط صارت كل هذه الممارسات نماذج قيمة لتعلُّم كيفية البقاء على قيد الحياة في المستقبل [٧٥].

لا يمكن أن تتغير العلاقة بالعلوم إلا بشرط أن يتم التمييز بدقة في العلوم المُسماة بالطبيعية بين تلك التي تختص بدراسة

الكون وتلك التي تتناول الطبيعةـالسيرورة ("ناتورا" أو "فوسيس").

في حين تنطلق الأولى من الكوكب باعتباره جسمًا بين الجسوم، تبدو الأرض بالنسبة للثانية شيئًا فريدًا.

يمكن الحصول على مثال توضيحي رائع لهذا التعارض إذا ما قورن عَالَمٌ مؤلَفٌ من عناصر جاليلية بنفس هذا العالم، ولكن على اعتباره مؤلفًا من عناصر يُمكن تسميتها باللوفلوكية، إجلالاً لـ "جيمس لوفلوك[١٥]"، (يُذكر اسمه هنا، على غرار جاليلي، اختصارًا لسلسلة طويلة من العلماء[(٧٦)]).

لقد وقف أنصار علوم الطبيعةـالكون مشدوهين أمام رأي الكيميائيين الإحيائيين مثل لوفلوك، الذي كان يرى أنه من الواجب اعتبار الكائنات الحية على الأرض مثلها مثل عديد من العناصر التي تشارك بشكل كامل في مراحل نشأة الظروف الكيمائية بل والجيولوجية، بصورةٍ جزئية للكوكب[(٧٧)].

إذا كان تركيب الهواء الذي نستنشقه يعتمد على الكائنات الحية، إذاً فالهواء لا يشكل في هذه الحالة البيئة التي تعيش وتنمو فيها هذه الكائنات الحية، بل هو جزئي نتيجة نشاطهم. بعبارةٍ أخرى، لا توجد بِنى عضوية من جهة، وبيئة من جهة أخرى، وإنما ثمة تداخل بين طرق تنسيقهم بصورة متبادلة. وهكذا يُعاد توزيع النشاط.

---

١٥ عالِم البيئة.

إن الصعوبة في فهم دور الأحياء، قدرتهم على الفعل، وفاعليتهم «agency» في صيرورة الظواهر الأرضية، تعيد إنتاج الصعوبات المتعلقة بفهم ظاهرة وجود الحياة في الفترات الغابرة. هذا دون التطرق إلى الصعوبات في تفسير الأفعال البشرية انطلاقًا من سيريوس.

في الواقع، إن أخذتم نموذج سقوط الجسوم معيارًا لكل حركة، فإن كل الحركات، الاضطرابات، التحولات، المبادرات، التجمعات، التبدلات، الصيرورات، التشابكات، والتداخلات ستبدو غريبة. ومن أجل استيعابها، سيلزم تخيل العديد من أفلاك التدوير «épicycles» تفوق في عددها تلك التي كان علماء الفلك القدامى قد اضطُروا إلى ابتكارها من أجل رصد حركة الكواكب.

إن التبسيط الذي أدخله "لوفلوك" على مسألة فهم الظواهر الأرضية لا يتمثل قطعًا في إضافته "حياة" إلى الأرض، ولا في تحويله الأخيرة إلى "بنية عضوية حية"، بل على العكس تمامًا في أنه توقّف عن إنكار كون الأحياء مشاركين نشيطين في مجموع الظواهر الكيميائية الحيوية «biochimiques» والكيميائية الأرضية «géochimiques». وحجته الاختزالية تقف على النقيض التام من المدرسة الحيويّة «vitalisme». فهو يرفض محو مؤشرات الحياة من على الكوكب، الذي يتم عبر حذف غالبية العناصر الفاعلة التي تظهر على امتداد السلسلة السببية للأحداث. لا أكثر ولا أقل.

ما يهمنا هنا ليس السير خلف "لوفلوك" نفسه، وإنما استيعاب إعادة التوجّه السياسي الذي يتيحه وجود تصوٌّر للعلوم الطبيعية، لا يستبعد أيًّا من الأنشطة الضرورية لوجودنا.

إن القوانين الفيزيائية متماثلة، سواء أكان ذلك على سيروس أو على الأرض، غير أنها لا تؤدي إلى النتائج ذاتها في الحالتين.

إذا اعتُمدت الأجسام الجاليلية نموذجًا، فيُمكِن اعتبار الطبيعة "موردًا قابلاً للاستغلال"، أما في حالة العناصر اللوكلوفية، فلا جدوى من التعلق بأوهام: إذ إن هذه العناصر فاعلة، وستتفاعل مع ما يحدث ـأولاً وقبل كل شيء بشكل كيميائي، وكيموحيوي، وجيولوجيـ وسيكون من السذاجة الاعتقاد بأنها ستظل جامدة بلا حركة، أيًّا ما كان الضغط الذي تمارسونه عليها.

بعبارةٍ أخرى، إذا كان بمقدور الاقتصاديين جعل الأرض مصدرًا للإنتاج، فهذه الفكرة لم تكن لتخطر على بال مَن سيكون قد قرأ لوفلوك.. أو "هومبولدت" أيضًا [٧٨].

يمكن تلخيص الصراع بسهولة: هناك مَن يستمرون في النظر إلى الأشياء انطلاقًا من "سيريوس" ولا يرون ببساطة أن النظام الأرضي يقوم برد فعل إزاء الفعل البشري، أو لا يعتقدون أن ذلك ممكنًا؛ حيث إنهم يأملون دومًا أن تقوم الأرض على نحوٍ غامض بالانتقال الآني إلى "سيريوس"، وذلك

بأن تصير كوكبًا ضمن كواكب أخرى [٧٩]. في أعماقهم، هم لا يؤمنون بأن ثمة حياة على الأرض يمكن لها أن تعاني وتتفاعل.

وهناك مَن يحاولون، عبر تعلّقهم الشديد بالعلوم، أن يستوعبوا ما يعنيه توزيع الفعل، الحركة، القدرة على الفعل على مدى هذه التسلسلات السببية التي يجدون أنفسهم متشابكين بداخلها. الأولون متشككون بيئيون (سواء بسبب تفضيل النأي بالذات أو بسبب الانغماس في الفساد)، والآخرون يقبلون مواجهة لغز عن عدد وطبيعة الفاعلين.

١٧

من المفهوم أن من أجل المضي قدمًا في البحث عن وصف للصراعات الجيوـاجتماعية، ليس من الممكن الاستغناء عن العلوم ولا عن العقلانية، وإنما ينبغي القيام بتوسيع نطاق العلوم الوضعية وفي الوقت ذاته العمل على تحديد هذا النطاق. يتوجب إفساح المجال لتلك العلوم في كل صيرورات الخلق كي لا تُقيِّد مسبقًا فاعلية «agentivité» (الكلمة بشعة ولكنها مناسبة) الكائنات التي سيتعين التوصل إلى اتفاق معها. ولكن ينبغي أيضًا إبقاء العلوم الوضعية في نطاق محدود.

هذا هو المقصد الأساسي من محاولة انتقاء داخل العلوم تلك التي تتناول ما يسميه بعض الباحثين: المنطقة أو المناطق الحرجة [٨٠].

في الواقع، ما يثير الدهشة حين يُنظر إلى هذا الجاذب الثالث، الأرضي، انطلاقًا من الفضاء هو أن كل ما يستلزم معرفته عنه ينحصر داخل منطقة بالغة الصغر لا تتجاوز ثخانتها عدة كيلومترات، وتقع بين الغلاف الجوي والصخور الأم. قشرة، طلاء، جلد، بضع طبقات ذي ثنْيات لا نهائية.

تحدثوا عن الطبيعة بشكل عام كما تشاؤون، دعوا أنفسكم تشعر بالإثارة أمام ضخامة الكون، توغلوا بفكركم نحو مركز الكوكب، اشعروا بالرهبة أمام هذه الفضاءات اللامتناهية، هذا كله لا يمنع أن كل ما يتعلق بكم يكمن في هذه المنطقة الحرجة بالغة الصغر. فمن هناك تنطلق كل العلوم التي تعني لنا، وإلى هناك أيضًا تعود.

لهذا، في كل مرة سيتعين فيها التطرق إلى الصراعات الأرضية، من الضروري تحديد من بين المعارف الوضعية تلك التي تركز على المنطقة الحرجة؛ بحيث لا تكون مثقلة بدراسة الكون كله.

فضلاً عن ذلك، فهناك سبب وجيه مرتبط بالفلسفة السياسية يدعو إلى التمسك بمثل هذا التمييز: بالرغم من أن علوم الطبيعة-الكون تتعلق بالفعل بالأرض، إلا أنها تتناول ظواهر بعيدة، تم استكشافها عن طريق الأجهزة، والنماذج والحسابات.

لا يعني الأمر كثيرًا إن عمدنا، على أي حال من أجل مصلحة البشر، إلى الادعاء بأننا نقدم بدائل لهذه البحوث أو

نشكك في جودتها. فأمام النتائج التي تمخضت عنها، نجد أنفسنا جميعًا في الوضع الطبيعي للتعلّم مما يقوله العلماء بهذا الشأن ـ ذلك مع احتفاظنا بحقنا في عدم الاكتراث به...

أما بالنسبة لعلوم الطبيعة‌ـالصيرورة التي تتناول دراسة المنطقة الدقيقة، فالوضع مختلف تمامًا. هنا، يجد الباحثون أنفسهم في مواجهة معارف تتبارى فيما بينها للاقتراب منها ولا يملكون أبدًا القدرة على استبعادها بشكل مسبق [٨١]. ينبغي عليهم مواجهة صراعات من أجل كلٍّ من العناصر الفاعلة التي تسكن تلك المنطقة، والتي لا تملك الحق في عدم الاهتمام بها ولا إمكانية فعل ذلك.

قلة من الناس سوف تقوم بتنظيم حملة من أجل المطالبة برؤية بديلة للثقوب السوداء أو للانعكاس المغناطيسي، غير أننا نعرف بالتجربة أن فيما يتعلق بالأراضي الزراعية، باللقاحات، بديدان الأرض، بالدب، بالذئب، بالناقلات العصبية، بالفطريات، بجريان الماء أو بتركيبة الهواء، فأي دراسة سرعان ما ستجد نفسها غارقة في معركة من التفسيرات. إن المنطقة الدقيقة ليست قاعة للدرس، كما أن العلاقة بالباحثين لا تحمل فقط سوى جانب تربوي.

إذا كان ما زال لدينا بعض الشك حول هذه النقطة، فسوف يبدده الجدل المزعوم بشأن الطقس. لا يمكن تصور أي مؤسسة كانت ستقوم بصرف دولار واحد من أجل تعميم الجهل بخصوص اكتشاف جُسَيْم هيجز «le boson de Higgs».

أما، من أجل إنكار التبدل المناخي، فتلك مسألةٌ أخرى: هنا، تتدفق التمويلات. إن جهل العامة هذا لشيءٌ ثمين لدرجة أنه يوجِد مبررات حتى للاستثمارات الضخمة [٨٢]!

بعبارةٍ أخرى، فإن علوم الطبيعة-الصيرورة لا يمكن أن تحظى بنفس الأبستمولوجيا المتعالية والمترفعة بعض الشيء، التي تتمتع بها علوم الطبيعة-الكون. إن الفلسفة التي كانت تقوم بحماية الأخيرة لن تقدم أي مساعدة للأولى. ومن الأفضل لها: أي لعلوم الطبيعة-الصيرورة، أن تستعد على نحوٍ مُنظّم كي تقاوم كل أولئك الذين يهتمون بها بدرجة هائلة، دون أن يكون لديها أمل في الإفلات من الجدالات المثارة حولها.

تكمن النقطة السياسية الجوهرية في أن رد فعل الأرض على أفعال البشر يبدو كحالةٍ شاذة في أعين أولئك الذين يؤمنون بعالمٍ أرضي مكوّن من عناصر جاليلية، ولكنه يبدو دليلَ إثباتٍ في أعين أولئك الذين يعتبرونه تسلسلاً منطقيًا للعناصر الفاعلة اللوفلوكية.

إذا تم الإقرار بما ورد أعلاه، فسيكون مفهومًا ألا تكون للجاذب الثالث علاقة تُذكَر بال "طبيعة" (بالمعنى الذي تتضمنه الطبيعة-الكون) مثلما كان يتم تخيلها سواء ككرةٍ أرضية، أو كعولمية.

ومن خلال الأرضي، ينبغي من الآن فصاعدًا فهم العامل المشترك بين العناصر التي حددتها علوم المنطقة الحرجة، والتي تكافح من أجل نيل الشرعية والسلطة ضد جهات معنية أخرى

لا حصر لها ذات مصالح متعارضة، ولديها كلها معارف وضعية أخرى، بهذا المعنى، فإن الأرضي يرسم حرفيًا عالمًا آخر يختلف عن "الطبيعة" مثلما يختلف عما كان يُطلق عليه "العالَم البشري" أو "المجتمع". إن الأطراف الثلاثة كيانات إلى حدٍ ما سياسية، إلا أنها لا تقود إلى نفس شغل الأرض، ونفس الـ "منظومة الأرضية" أو الـ "تأريض"[١٥] «prise de terre».

يفهم من ذلك أيضًا أن اكتشاف هذا العالم الجديد يتطلب استعدادًا نفسيًا آخر، "تعطشًا للمعرفة" من نوعٍ آخر، يمكن من خوض مغامرة التعرف على العولمي. إن السعي إلى التحرر عبر انعدام الجاذبية لا يتطلب الخصال ذاتها التي يتطلبها التحرر عبر الطمر. والإبداع عن طريق كسر كل الحدود والقوانين ليس كالإبداع عن طريق الاستفادة من هذه الحدود. والاحتفاء بمسيرة التقدم لا يمكن أن ينطوي على نفس المعنى، إذ يتشكل الأخير تبعًا لما إذا كان المرء يتجه نحو العولمي أو أنه في طريقه لإحراز "تقدُّم حاسم" فيما يتعلق بالأخذ بعين الاعتبار لردود فعل الأرض على أفعالنا.

في الحالتين، يتعلق الأمر بعلومٍ وضعية، إلا أنه لا علاقة له بنفس المغامرات العلمية، ونَفس المختبرات، ونفس الأجهزة، ونفس الأبحاث، ولا حتى نفس الباحثين الذين

---

16 يُشير الكاتب إلى ما يعرف بالمنظومة الأرضية، أو التأريض، باعتبارها توفر طوق نجاة للكائن الحي. يُطلق هذا المصطلح على الاتصال الكهربائي الذي يحدث بين الأجهزة الكهربائية والأرض بغية تفريغ الشحنات الكهربائية إلى الأرض، للوقاية ضد أخطار الصعق الكهربائي. على سبيل المثال، يقوم بهذا الدور الطرف الثالث الذي يوجد في بعض مقابس الكهرباء.

ينصب اهتمامهم على هذا أو ذاك من الجاذبَين اللذين سبق ذكرهما.

إن الميزة الإستراتيجية لمثل هذا التمييز هو ضمان نوع من الاستمرارية بروح الابتكار، والمبادرة، والاكتشاف، التي تبدو لاغنى عنها كي لا يفقد الأمل، بخلاف "بيانكور" [١٧]«Billancourt»، على الأقل الحداثيين الذين سبقت الإشارة إليهم والذين يُعتبرون أيضًا حلفاء مُحتَملين. الأمر الوحيد الذي جرى تعديله هو نقطة تطبيق هذه الروح.

إن ما ينفتح هو عصر جديد من "الاكتشافات العظيمة"، ولكنه لا يُشبه لا البحث الممتد عن عالمٍ جديد أُخليَ من سكانه كما كان فيما مضى، ولا الهروب المجذوب إلى نوعٍ من الحداثة-الجديدة-المفرطة «hyper-néo-modernité»، ولكنه يشبه الدفن تحت آلاف الطيات من الأرض.

هي الأرض، وهو ما عرفناه بمزيج من الحماس والخوف، التي تحمل العديد من الخدع في جعبتها وتتسلل باعتبارها طرفًا ثالثًا إلى كل أفعالنا. وفي الحالتين، يتعلق الأمر -من أجل الحفاظ على أحد منابع التراث الحداثي- بالقدرة على التجاوز، دون تحطيم المحظورات ذاتها، ودون عبور أعمدة هرقل[١٨] ذاتها.

---

١٧ يشير الكاتب إلى حي «Billancourt» الذي يشكل الربع الجنوب الغربي لمدينة «Boulogne-Billancourt» والذي تحاول المنظمات المدافعة عن البيئة حمايته من آثار تحوله إلى واحدة من أهم المناطق الصناعية بفرنسا.

١٨ كان الرومان يطلقون اسم "أعمدة هرقل" «Les colonnes d'Hercule» على مضيق جبل طارق قبل أن يكتشفه طارق بن زياد ويعبره ليصل إلى الأندلس.

١٨

إن إعادة توجيه الانتباه من "الطبيعة" إلى الأرضي قد يمكن أن تضع حدًّا للتفكك الذي جمَّد المواقف السياسية منذ ظهور التهديد المناخي، الأمر الذي يجعل تقاطع النضالات المسماة بالاجتماعية مع النضالات المسماة بالبيئية محفوفًا بالمخاطر.

إن الربط الجديد بين التوجهين يعني القول بأننا ننتقل من تحليل ما يتعلق بأنظمة الإنتاج إلى تحليل ما يتعلق بأنظمة التوليد. يختلف التحليلان عن بعضهما أولاً من حيث المبدأ: الحرية لأحدهما، التبعية للآخر. ثانيًا يختلفان فيما يتعلق بالدور الممنوح للإنسان: مركزي بالنسبة لأحدهما، تراتبي بالنسبة للآخر. وأخيرًا يختلفان في نوع الحركات التي تتوليان مسؤولية القيام بها: الآلية لأحدهما، الخلق للآخر.

لقد تأسس نظام الإنتاج على تصورٍ معين عن الطبيعة، عن المادية وعن دور العلوم، وكان يسند وظيفةً أخرى للسياسة وكان يقوم على توزيع الأدوار بين الأطراف الفاعلة البشرية ومواردها. كان يرتكز على فكرةٍ مفادها أن حرية البشر تمارَس في إطارٍ طبيعي من الممكن فيه إقرار حدود دقيقة لكل حصة من الممتلكات.

يضع نظام التوليد عناصر، وفاعلين، وكائنات حية في مواجهة بعضهم، وهم يملكون جميعهم قدرات مختلفة على رد

الفعل. إنه لا ينطلق من نفس التصور للمادية، ولا يستند إلى نفس الأبستمولوجيا، ولا يتجه إلى نفس السياسات.

ذلك يعود إلى أنه لا يهتم بإنتاج سلع للبشر باستخدام موارد، بل يهتم بتوليد ما يتعلق بالأرض؛ كل ما يتعلق بالأرض وليس فقط بالبشر. إنه قائم على فكرة خلق روابط، وهي عمليات تزداد صعوبة، خاصةً وأن الكائنات الحية ليست مُقَيَّدة بحدود ولا تكف عن التداخل والتشابك مع بعضها.

إذا دخل هذان النظامان في صراع، ذلك أن ظهور سلطةٍ جديدة قد فرض إعادة طرح كل الأسئلة القديمة، ليس انطلاقًا من المشروع الوحيد للتحرر، ولكن انطلاقًا من مزايا التبعية التي استُعيدت حديثًا.

تأتي التبعية أولاً لتقيّد مشروع التحرر، وتعقده، ثم تُلزم باستئنافه لتقوم في نهاية الأمر بتضخيمه. كما لو أن الأمر يتعلق، مرةً أخرى، بقلب المشروع الهيجلي رأسًا على عقب، عبر تحول جدلي كامل جديد [٨٣]. كما لو أن الروح لم تكن قد انتهت قط من التجسد.

إن هذا الشكل الجديد من الالتزام هو ما يُراد التأكيد عليه بالقول بأنه لا يوجد كوكب (ينبغي قول منطقة دقيقة) يمكن إقامة يوتوبيا التحديث أو العولمةـناقص عليه. كيف يمكن إنكار أننا نجد أنفسنا في مواجهة سلطةٍ أخرى تفرض حواجز أخرى غير الحدود القديمة المعروفة بـ "الطبيعية" [٨٤]؟

هذا الصراع على السلطة هو ذاته الذي أدركته النخب الظلامية تمامًا حين قررت أن تكف عن تقاسم العالم المشترك مع بقية التسعة مليارات من البشر الشجعان الذي كان مصيرهم ـ على الأقل هذا ما كانت تدعيه ـ شغلها الشاغل. ألا تكشف تلك النخب الآن عن السلطة الجديدة وتحاول إخفاء جرائمها عنها [٨٥]؟

كان هذا التناقض المستمر هو الذي برز على السطح في صيغة دبلوماسية، يوم ١٢ ديسمبر ٢٠١٥، في ختام اتفاقية باريس حول المناخ، حين همس كل وفدٍ لنفسه: "ولكن أليس ثمة عالَم يستوعب مشاريعنا التنموية المتراكمة"؟!

مَنْ حصل إذًا على توقيعات هذه المئة وخمس وسبعين دولة، سوى أحد أشكال السيادة التي قبلت هذه الدول بالامتثال لها، والتي دفعت هذه الدول إلى التوافق على الأمر فيما بينها؟ إن لم تكن تلك سلطة تتحكم في رؤساء الدول، الذين يقرّون لها بنوع غامض من الشرعية، ماذا نسميها؟

يتلخص هذا التناقض نفسه في مفردة "الأنثروبوسين" «L'Anthropocèn»، بغض النظر عن الجدالات المثارة حول تاريخ تلك الحقبة وتعريفها: "يقوم النظام الأرضي من الآن فصاعدًا برد الفعل إزاء أفعالكم، بحيث لن يكون لديكم بعد ذلك إطار مستقر وآمن، ويمكن أن يستوعب رغباتكم في التحديث". ورغم كل الانتقادات التي وُجهت إلى هذا المفهوم، فإن البادئة "أنثروبوس" «anthropos» التي تُستخدم للإشارة إلى

حقبة جيولوجية هي في الواقع عَرَض لإعادة تسييس كافة المسائل المتعلقة بالكوكب الأرضي. يبدو الأمر كما لو أن شعار "صنع في عالم البشر" قد تم حفره على كل الموارد الطبيعية القديمة (٨٦).

وها هو يتَّضح أخيرًا بصورةٍ جلية في اليوم الذي أعلن فيه ترامب بنبرةٍ مظفرة، من حديقة البيت الأبيض، الانسحاب من اتفاقية باريس. إنه إعلان حرب يسمح باحتلال كل البلدان الأخرى، إن لم يكن عبر قوات، فعلى الأقل من خلال ثاني أوكسيد الكربون الذي تحتفظ الولايات المتحدة الأميركية بالحق في إطلاقه.

اذهبوا لتخبروا الموقعين على الاتفاقية بأنهم لا يتعرضون حرفيًا لاجتياح الولايات المتحدة التي تؤثر في تركيبة الغلاف الجوي للأرض، وذلك رغم بعدهم عنها بآلاف الكيلومترات! هو تعبير جديد عن الـ "حق" في الهيمنة باسم نسخة جديدة من "المجال الحيوي" [١٩] «Lebensraum.».

مع التسليم بأن التناقضات هي التي ترسم مسار التاريخ السياسي، فيجب الإشارة إلى أن ما يزيد من حدة التناقض بين

---

١٩ كلمة ألمانية تشير إلى مفهوم جيوسياسي أنشأه منظرو جغرافيا ألمان في القرن التاسع عشر. يرتكز هذا المفهوم على فكرة توفير أرض كافية لتأمين بقاء الشعب الذي يقطنها: أي "موطن" له، وتمكينه من تحقيق نموه عبر فرض نفوذه على الأراضي التي يشغلها. استخدم هذا المفهوم لتبرير السياسيات التوسعية الاستعمارية للنظام النازي.

نظام الإنتاج ونظام التوليد هو التبعية لهذا الشكل الجديد من السلطة، والذي هو في الوقت ذاته قديم جدًّا وحديث جدًّا.

هناك اختلاف آخر بين هذين النوعين من الأنظمة، ألا وهو الدور المنوط بالبشر، باعتبارها نتيجة مباشرة لذلك المبدأ الجديد الذي تستند إليه السلطة.

منذ مئة عام والصراع قائم من أجل معرفة ما إذا كانت الأسئلة المتعلقة بالطبيعة ستقتضي الخروج من المركزية الأنثروبولوجية، أم أنه على العكس من ذلك يجب إبقاء الإنسان في المركز، وكأن الأمر يتعلق بوجوب الاختيار بين علم بيئة عميق إلى حدٍ ما وآخر "إنساني" إلى حدٍّ ما.

ليس ثمة بالطبع سياسة أخرى غير سياسة البشر ولخدمة مصالحهم! لم تتناول المسألة قط هذه النقطة. لقد كان اهتمامها دائمًا منصبًا على شكل وتركيبة هذا البشري.

لا يقوم النظام المناخي الجديد بإعادة النظر في المكانة المركزية التي يحتلها البشري، بل في تكوينه، وحضوره، وتشكيله، ولكي نكون صادقين مآله. لكن، إن أحدثتم تغييرات بهذه العناصر، فأنتم تغيرون أيضًا تعريف مصالحه.

بالنسبة للحداثيين، كان من المستحيل في الواقع تحديد موقع للبشري في مكانٍ محدد. فقد كان إما كائنًا طبيعيًا مثل كل الكائنات (بالمعنى الكلاسيكي للطبيعة-الكون) الأخرى، أو الكائن القادر بامتياز على الإفلات من الطبيعة (بالمعنى القديم ذاته) بفضل روحه، وثقافته، وذكائه. غير أن هذا التأرجح، لم

يكن أبدًا بالإمكان وضع حد له عن طريق تعيين مكان للبشرية في فضاءٍ محدد.

إذا كان الوضع قد تغير اليوم، فذلك لأن الأزمة المناخية قد دفعت الطرفين إلى خارج نطاقهما: مفهوم الطبيعة من جهة، ومفهوم البشري من جهةٍ أخرى.

إن ما يجعل الاختيار بين دعم أو معارضة المركزية الأنثروبولوجية فكرة غير منطقية إلى حدٍ بعيد هو أن يكون هناك مركز، أو بالأحرى مركزان: الإنسان والطبيعة، وأن يستلزم الأمر الاختيار بينهما. والأكثر غرابة: هو أن يكون لهذه الدائرة حدود واضحة بحيث يظل الآخرون خارجها. كما لو كان ثمة خارج!

إن النظام المناخي الجديد تحديدًا لم يعد أحد يعرف ما يمكن الاعتماد عليه من أجل البقاء. إذا لم يكن هناك حالة من فقدان بؤرة التركيز، ذلك أنه ليس ثمة دائرة. من الأجدر أن يقال عن الأرض لا عن الكون اللامتناهي، مثل "باسكال"، إن "مركزها يوجد في كل مكان ومحيطها لا يوجد في أي مكان".

للإشارة إلى هذه النقطة، ربما حان الوقت للكف عن الحديث عن البشر والبدء في الحديث عن كل ما هو أرضي، مع التركيز على المادة العضوية المتحللَة لها خواص السماد، ورق شجر معفن، تراب الخضار، دُبال «humus» وعلى السماد العضوي خليط من الأوراق والروث للتسميد «compost»،

اللذين تضمنهما أصل مفردة "إنسان" (تتمثل ميزة الأرضي في أنه لا يحدد لا النوع ولا الفصيلة...).

إن قول: "نحن أرضيون في وسط أرضيين" لا يمهد إطلاقًا إلى السياسة ذاتها القائمة على: "نحن بشر في وسط الطبيعة". ليست المقولتان مقطوعتين من نفس الشجرة.. بالأحرى من نفس الطين.

أما الاختلاف الثالث بين نظم الإنتاج ونظم التوليد فيرجع إلى إمكانية مضاعفة أعداد مَن يلعبون أدوارًا مؤثرة بصورةٍ فعالة دون تطبيع السلوكيات. أن يصبح المرء ماديًّا لم يعد يعني اختزال العالم بالضرورة إلى أشياء، بل توسيع قائمة الحركات التي ينبغي أخذها في الحسبان، ولا سيما الحركات الخلاقة التي لم تكن النظر إلى الأرض انطلاقًا من "سيريوس" تسمح بمتابعتها عن قرب.

في الواقع، يواجه الأرضيون مشكلة دقيقة للغاية تتعلق باكتشاف كم الكائنات الأخرى التي يحتاجون إليها للبقاء على قيد الحياة. وخلال عملية إعدادهم لهذه القائمة، يقومون برسم "مجالاً الحياة"[٢٠] التي سيعيشون عليها (سيمكن هذا التعبير من استبدال كلمة إقليم «territoire» التي غالبًا ما كانت تُختصر في التقسيمات الإدارية للدولة).

إن تعقب مسار الأرضيين بمثابة إضافة تضارب تفسيرات متعلقة بماهية هذا الفاعل المؤثر أو ذاك، بما يريده كل منهما،

---

٢٠ بمعني الأراضي الصالحة للحياة.

وبما يرغب فيه كل منها، وبما يستطيع فعله كل منهما، إلى التفسيرات المتعلقة بماهية وأمنيات ورغبات وقدرات فاعلين مؤثرين آخرين ـوينسحب هذا على العمال مثلما ينسحب على الطيور في السماء، على المتداولين في أسواق المال «golden-boys» مثلما هو على بكتيريا التربة، على الغابات وكذلك الحيوانات [٨٧]. ماذا تريدون؟ ماذا في وسعكم عمله؟ مع مَن أنتم مستعدون للتعايش؟ مَن بإمكانه تهديدكم؟

من المهم أيضًا تفادي الوقوع في مأزق الاعتقاد بأنه من الممكن العيش في حالة من التعاطف والتناغم مع العناصر الفاعلة المسماة بالـ "طبيعية". ما يحدث ليس استجداء موافقة جميع هذه العناصر المتجاورة، ولكن تعلم الاستناد عليها. لا يوجد أي اختزال، ولا أي انسجام. ما يحدث ببساطة هو أن قائمة الفاعلين المؤثرين تطول، ومصالحهم تتقابل، ويتعين حشد كل قوى البحث من أجل البدء في تحديد موقع بينها.

في نظام التوليد، يتساءل كل الفاعلين المؤثرين، وكل الأحياء، حول مسألتي وجود أخلافٍ لهم واعترافهم بأسلافهم: أي باختصار حول إقرارهم بالانحدار من سلالات سوف تتمكن من الاستمرار [٨٨].

في نظر الحداثيين السابق ذكرهم، تلك عملية غير بديهية إلى حدٍ كبير. بالنسبة لهم، ينبغي دومًا الاختيار بين القديم والجديد اللذين حدثت قطيعة بينهما بلا رجعة. فالماضي لم يعد هو المكون الذي كان يُمكن من العبور، بل كان ببساطة هو

ذاته الذي قد تم تجاوزه. مناقشة هذا الخيار، التردد بشأنه، تداوله، أخذ الوقت اللازم لذلك، هو بمثابة التشكيك في اتجاه سهم الزمن: أي الابتذال.

يكمن خبث جبهة التحديث في أنها باستهزائها بمفهوم التقاليد باعتبارها شيئًا بائدًا قد جعلت من المستحيل تصور أي من أشكال النقل، الإرث، الاستعادة، وبالتالي التحول: أي باختصار الخلق. وهو ما ينسحب على تعليم الناس محدودي الذكاء مثلما ينسحب على الحقول، والحيوانات، والحكومات أو الآلهة.

حين ينهمك البشر داخل نظام إنتاج، يكونون هم وحدهم القادرين على التمرد ـدومًا بعد فوات الأوان، أما حين ينغمسون داخل نظام توليد، فيمكن سماع الكثير من الجلبةـ قبل وقوع الكارثة. هنا، لا تتعدد وجهات النظر فحسب، إنما تتعدد أيضًا نقاط الحياة[٢١] [(٨٩)].

ومع التأرجح من نظام إنتاج إلى نظام توليد سيُمكِن مضاعفة منابع التمرد على الظلم، ومن ثمّ توسيع نطاق الحلفاء المحتملين في الصراعات الواجب خوضها من أجل الأرضي.

لو كان مثل هذا التغير الجيوسياسي متعلقًا بقرار فلسفي، فقد يكون بلا قوة مؤثرة. حتى بداية النظام المناخي الجديد، كان هذا التغير يبدو غير محتمل، ملتفًا، مروعًا.

---

٢١ يشير هذا المصطلح الشائع استخدامه في ألعاب الفيديو إلى مستوى طاقة ودرجة حيوية أبطال اللعبة.

من الآن فصاعدًا، نستفيد مما يمكن تسميته بالعون المُقَدَّم من العناصر التي حطمت قيودها، والتي تفرض إعادة تعريف ما يعنيه إنسان، أرض، سياسة، حضارة.

إذا تم النظر إلى الوضع الحالي بصورة غير مباشرة، سيُلاحظ أنه ينطوي ببساطة على تناقض مثل العديد من التناقضات التي حدثت طوال مسيرة التاريخ المادي داخل نظم الإنتاج، ولكن بين نظام الإنتاج من جهة، ونظام التوليد من جهةٍ أخرى. إنها مسألة متعلقة بالحضارة وليست فقط بالاقتصاد.

من أجل الانتقال من نظامٍ إلى آخر، يجب تعلم كيفية التحرر من سطوة النزعة الاقتصادية «économisation»، تلك النظرة المنطلقة من سيريوس التي تلقى بظلالها على الأرض وتحجب عنها الرؤية[٩٠]. وكما كتب بولاني، فإن "الدين العلماني" للسوق ليس من هذا العالم[٩١]. فنزعته المادية هي نزعة مثالية، عَمَّقَ التبدل المناخي من حالتها غير مادية. إن استعادة الأرض تعني الكفاح ضد غزو القوى الكائنة خارج كوكب الأرض والتي تختلف مصالحها ومواقيتها عن تلك التي تتعلق بالقوى القائمة في باطن الأرض، والتي تمنع حرفيًا ظهور أي كائن على الأرض.

من الممكن الآن تسمية ما كان مستهدفًا منذ بداية هذا البحث: لم يصبح الأرضي بعد مؤسسة، ولكنه بالفعل عاملاً

فاعلاً مختلفًا عن الدور السياسي الذي ينسبه الحداثيون إلى "الطبيعة" (٩٢).

لا تحل الصراعات الجديدة محل القديمة، بل تزيد من حدتها، ومن انتشارها بصورةٍ أخرى وتجعلها بالأخص قابلة للتحديد. لا يترك خوض معركة من أجل اللحاق بيوتوبيا أو بأخرى من العالمي أو المحلي الآثار ذاتها التي يترتب عليها الصراع من أجل الرسو على الأرض، والتي من شأنها توضيح المشهد!

(علاوة على ذلك، لعل الوقت قد حان للتخلص تمامًا من كلمة علم البيئة، إلا للإشارة إلى مجالٍ علمي. ليست هناك سوى مسائل تتعلق بمجالات الحياة، مع أو ضد أرضيين آخرين يواجهون الرهانات ذاتها. من المفترض أن تكفي صفة "سياسي" من الآن فصاعدًا للإشارة إلى هذه المسائل حين تُقصد المدينة بمعناها الواسع «polis»[٢٢]، والذي المعنى والذي تم تضييقه منذ أمدٍ طويل).

من الواضح أننا الآن في حالة حرب، غير أنها حربٌ مضحكة، معلنة وخفية في آنٍ واحد (٩٣). البعض يراها في كل مكان، والبعض الآخر يجهل وجودها بالكامل.

ومن قبيل التهويل حد الشطط، لِنَقُل إننا إزاء صراع بين البشر الحداثيين الذين يظنون أنفسهم الوحيدين في الهولوسين في

---

٢٢ عند قدماء اليونان، تعني كلمة «polis» في اللغة اليونانية القديمة مدينة-دولة «cité-État» ذات كيان سياسي مستقل.

مضيهم قدمًا نحو العولمي أو في نزوحهم إلى المحلي، وبين الأرضيين الذين يدركون أنهم في الأنثروبوسين والذين يسعون إلى التعايش مع أرضيين آخرين تحت سلطة قوة ما زالت بلا مؤسسة سياسية واضحة المعالم.

وهذه الحرب، المدنية والأخلاقية في الوقت نفسه، تخلق شرخًا داخل كل واحدٍ منا.



١٩

إن نقطة ضعف أي نص يزعم قدرته على توجيه المؤثرات السياسية نحو رهانات جديدة، هو أن من حق القارئ أن يسأل في نهاية الأمر: "كل ذلك جميل للغاية. قد تكون الفرضية جذابة في ظل أنه لم يتم إثبات صحتها، ولكن ماذا نفعل بها من الناحية العملية وأي تغيير ستحدثه بي"؟

"هل ينبغي عليّ أن أتجه إلى الزراعة المستدامة [٩٤]؟ أن أتقدم المظاهرات [٩٥]؟ أن أسير صوب قصر الشتاء؟ أن أتبع دروس القديس فرانسوا [٩٦]؟ أن أصير قرصانًا؟ أن أنظم حفلات أدعو إليها الجيران؟ أن أعيد ابتكار طقوس كطقوس الساحرات [٩٧]؟ أن أستثمر في مجال التمثيل الضوئي الاصطناعي [٩٨]؟ هذا إن لم تطلبوا مني أن أتعقب الذئاب [٩٩]"!

"تقولون إنكم تعطونني رسمًا توضيحيًا "لتحديد" مواقع أصدقائي وأعدائي، إلا أنني بخلاف تصويب السهام عليها لمعرفة ما إذا كانوا يبتعدون أم يقتربون أكثر من هذا القطب أو ذاك، فأنا أظل معدمًا تمامًا".

ليس الهدف من هذه الدراسة بالتأكيد ممارسة نوع من التضليل، ولكن لا يمكن أن يُطلب منها أن تسير بسرعة تسبق التاريخ الحالي: إن الأرضي معروفٌ للجميع ـمَن ذا الذي يغيب عن باله التخلي عن مسار تتبع الحداثة؟ـ وفي الوقت ذاته لا توجد لدى النظام المناخي الجديد مؤسسة مشتركَة بين جميع الأطراف. نحن عالقون في هذا الْبَيْن بَيْنَ في هذه الحرب المضحكة، إذ نجد أنفسنا مُستَنفَرين ومتأهبين للتقدم نحو الجبهة، ومنقسمين ومتراجعين إلى الخلف على حدٍ سواء.

وما يزيد من غموض الوضع هو أن الأرضي خالٍ ومأهول في آنٍ واحد. ثمة أعداد لا حصر لها من المبادرات للعودة إلى الأرض، كلمة تتردد في كل مكان في معارض الفن كما في الدوريات العلمية، في عودة ظهور المشاعات العامة، وفي إعادة احتلال القرى البعيدة. وعلى الرغم من أنه، في ظلٍ غياب نظام إحداثيات آخر، لا يلحظ أحد هذه الفكرة أثناء الانتخابات أو عند متابعة وسائل الإعلام، إلا كل شيء قد حُسم بالفعل: لقد حدث النزوح الكبير بالفعل [١٠٠].

ومع هذا، فإن قوة الجذب الثالثة لا تتمتع فعلاً بألوان جاذبة. فهي تتطلب الكثير من العناية، الكثير من الاهتمام،

الكثير من الوقت، الكثير من الدبلوماسية. حتى اليوم، لا يزال العولمي هو الذي يسطع، هو الذي يُخَلِّص من القيود، هو الذي يثير الحماسة، هو الذي يسمح بقدر كبير من الجهل، هو الذي يُحَرِّر، هو الذي يعطي الانطباع بالفتوة الأبدية. ولكن المشكلة هي أنه لا وجود له. إن المحلي هو الذي يطمئن، هو الذي يهدئ، هو الذي يمنح هوية. ولكنه هو أيضًا من لا وجود له.

وتظل الحقيقة أن السؤال الذي طُرح في بداية هذه الدراسة لا بد وأن معناه قد تغير: "كيف يمكن بث الشعور بالحماية، دون الرجوع في الحال إلى قضايا الهوية والدفاع عن الحدود؟ يمكن تحقيق ذلك عبر حركتين متكاملتين كانت الحداثة قد جعلتهما متناقضتين: الارتباط بأرضٍ من جهة، والتعولم من جهة أخرى".

ولكن قوة الجذب الثالثة ـالتي تختلف بوضوح عن الـ "طبيعة" والتي لا تمثل الكرة الأرضية كلها، وإنما القشرة الرفيعة للمناطق الحرجة فحسبـ تجمع بين الوجهين المتعارضين للأرض وللعالَم. أرضٌ لا علاقة لها بالمحلي وعالَمٌ لا يشبه لا العولمةـناقص ولا المنظور الكوكبي.

أخذت قوة الجذب الثالثة عن الأرض المادية، عدم التجانس، الثخن، التراب، المواد العضوية، تراكم الطبقات، التعقيد المذهل، المتابعة الدقيقة التي تتطلَّبها، العناية الفائقة التي تقتضيها. كل ما لا يُرى انطلاقًا من سيريوس. النقيض التام

لأرضٍ داعمة سيأتي مشروع تنمية أو عقارات للاستيلاء عليها. ولكن الأرض، بهذا المعنى، لا يمكن امتلاكها. ينتمي المرء إليها، ولكنها لا تنتمي لأحد.

ولكن تلك القوة الجاذبة أخذت عن العالَم أيضًا، ليس العولمة ـناقص التي- في صورة العولمي ترتبط بانحراف مشروع التحديث عن مساره- ولكن في صورة تبدو على الدوام فعالة، ألا وهي العولمة- زائد: أي من خلال ترسيخ أشكال الوجود التي تمنع أن تنحصر حياة الفرد داخل مجتمعٍ محلي، وأن يتخذ مكانًا له داخل أي حدود ممكنة.

تسمح الأرض بالشعور بالتعلق، في حين يمنح العالم القدرة على الانفصال. يسمح الانتماء بالخروج من وهم وجود الخارج الكبير، أما الانفصال فيُمكّن من الخروج من وهم الحدود. تلك هي الحسبة التي يتعين القيام بها.

لحسن الحظ، إن ما يُمكّن من الاقتراب من الحل، هي إحدى السمات المميزة لتاريخ النظام المناخي الجديد: لا يمكن العبور من المحلي إلى العولمي عبر سلسلة من المقاييس المتداخلة، مثل الانطباع الذي تعطيه خاصية تكبير الصورة والذي يوهم تطبيق «Google Earth» به متصفِحَه.

إن الرغبة في إعادة الكائنات، التي تحيي الأراضي المتصارعة التي يتكون منها الأرضي، الرغبة في إعادة هذه الكائنات داخل الحدود القومية، الإقليمية، العِرقية، والهوياتية ليس لها معنى، والرغبة في الانفصال عن هذه النضالات

الأرضية من أجل "الانتقال إلى مستوى عالمي" واعتبار الأرض "كتلة واحدة" ليس لها معنى أيضًا. إن ما يميّز الأرضي هو هدم المقاييس والحدود الزمانية أو المكانية. وتعمل هذه القوة في جميع الأنحاء في آنٍ واحد، ولكنها تفتقر إلى الوحدة فيما بينها. على المستوى السياسي نعم، لكن على المستوى الدولتيّ لا. إنها حرفيًا في الغلاف الجوي المحيط بالأرض.

وفقًا لهذا المعنى العملي للغاية، يقوم الأرضي بإعادة توزيع الأدوار السياسية. كل كائن من الكائنات التي تُشارك في تكوين أي بقعة من مجالات الحياة يملك طريقته الخاصة في تحديد ما هو محلي وما هو عولمي، وفي تعريف طريقة اشتباكه مع الآخرين.

إن ثاني أوكسيد الكربون لا يشغل الحيز المكاني ذاته الذي تشغله وسائل النقل المدينية، المياه الجوفية ليست محلية بنفس المعنى الذي تنطوي عليه أنفلونزا الطيور، كما أن المضادات الحيوية تعولم العولمة بطريقة تختلف كليًا عن تلك التي ينتهجها الإرهابيون الإسلاميون (١٠١)، لا تشكل المدن نفس الفضاءات التي تشكلها الدول، يجبر الكلب "كايين" صاحبته، "دونا هاراوي" « Donna Haraway»[٢٣] على الانتقال إلى أماكن لم تكن لتخطر على بالها (١٠٢)، والاقتصاد القائم على الفحم لا يؤدي كما أشرنا إلى نفس الصراعات التي يوجدها البترول. وهكذا دواليك.

---

٢٣ دونا هاراواي هي أستاذة جامعية متفرغة في قسم العلوم الإنسانية بجامعة كاليفورنيا.

يعرض العولمي، مثله في ذلك مثل المحلي الأرضي لظروف سيئة، الأمر الذي يفسر الإحباط الحالي: ماذا نفعل في قضايا ضخمة وتافهة في نفس الوقت؟ وهو ما يثبط العزيمة في واقع الأمر.

ما العمل؟ الوصف أولاً. كيف يمكن أن نتحرك سياسيًا دون أن نكون قد قمنا بجرد الأرضي، ومسحه، وتحديد أبعاده، سنتيمترًا بسنتيمتر، كائنًا كائنًا، فردًا فردًا، ممَّ يتكون الأرضي بالنسبة لنا؟ قد نكون في تصريحاتنا نعبر عن آراء مخادعة أو ندافع عن قيم جديرة بالاحترام، إلا أن مؤثراتنا السياسية ستبقى عقيمة.

كل سياسة لا تأخذ في الاعتبار توصيف الأراضي العامرة التي غابت عن الأنظار هي سياسة فاسدة. لا يمكن السماح بالقفز من فوق تلك الخطوة. ليست ثمة كذبة سياسة أكثر وقاحة من تلك التي تقترح برنامجًا.

إذا كانت السياسية قد أُفرغت من محتواها، فذلك يعود إلى أنها تجمع بين الشكوى المكنونة للمنبوذين، والتمثيل الكلي في القمة، على نحوٍ يبدو الطرفان فيه غير متناسبَين مع بعضهما، وبالتالي غير قابلَين للقياس. هذا ما يمكن تسميته بعجز التمثيل «déficit de représentation».

ومع ذلك، من هو الكائن الذي بمقدوره أن يصف نوعًا ما ـ ما يعتمد عليه على وجه الدقة؟ لقد جعلت العولمة ـ ناقص هذه المسألة شبه مستحيلة، وتلك كانت غايتها الرئيسية: الكف

عن إعطاء فرص للاحتجاجات، من خلال جعل تتبع نظام الإنتاج أمرًا مستحيلاً.

من هنا تنبع أهمية اقتراح تخصيص فترة أولية لتفكيك التكتل من أجل الوصول أولاً لتمثيل أفضل للمناطق التي تتركز فيها الصراعات الجيوـاجتماعية، قبل إعادة تشكيلها. كيف؟ كالعادة، انطلاقًا من القاعدة، عن طريق البحث والاستقصاء.

من أجل هذا، لا بد من قبول تحديد أراضٍ صالحة للعيش بوصفها السبيل لبقاء الأرضي على قيد الحياة، والتساؤل حول الأرضيين الآخرين الذين يعتمدون عليه.

ليس من المرجح أن تتقاطع هذه الأرض مع وحدة مكانية كلاسيكية، قانونية، إدارية أو جغرافية. بالعكس، فإن الإعدادات ستعبر كل مقاييس المكان والزمان.

إن تحديد أرض للعيش، بالنسبة لكائن أرضي، يعني أن يضع قائمة بما يحتاج إليه للبقاء، ومن ثَمَّ بما هو مستعد للدفاع عنه، إذا اقتضى الأمر ولو كلفه ذلك حياته. ينطبق هذا الأمر على ذئب كما ينطبق على جرثومة، على شركة مثلما على غابة، على إله كما على عائلة. إن ما يجب توثيقه، هي أملاك الأرضي ـبكل ما تعنيه كلمة مِلك ـ التي تستحوذ عليه والتي يتوقف وجوده عليها. وذلك إلى درجة أنه يختفي إذا حُرم منها.

تكمن الصعوبة، كما هو واضح، في إعداد مثل هذه القائمة. هناك يكون التناقض بين صيرورة الإنتاج وصيرورة التوليد على أشده.

في نظام الإنتاج، من السهل وضع قائمة: بشر وموارد. أما في نظام التوليد، فإن وضع القائمة أصعب بدرجة كبيرة إذ إنها تتشكل من عناصر، وكائنات، وفاعلين مؤثرين لكل واحدٍ منهم مساره الخاص ومصلحته الخاصة.

في الواقع، فإن الأرض لا تقتصر على نمطٍ واحدٍ من العناصر. الأمر يتعلق بمجموع الكائنات ـالبعيدة أو القريبةـ التي تم التأكد، عبر الاستقصاء، وبالتجربة، ووفقًا للعادة، والثقافة، من أن وجودها لا غنى عنه لبقاء الأرضي على قيد الحياة.

المقصود هو توسيع نطاق تعريفات الطبقة، وذلك بجعلها تمتد لتشمل كل ما يسمح بالبقاء على قيد الحياة. ما هو أكثر شيء تتمسكون به؟ مع من تستطيعون العيش؟ من يعتمد عليكم في معيشته؟ من ينبغي عليكم محاربته؟ كيف يمكن تحديد الأولويات في هذه العناصر تبعًا لأهميتها؟

حين يُطرح هذا النوع من الأسئلة يتكشف لنا مقدار جهلنا. في كل مرة يقوم المرء بإجراء هذا النوع من الدراسات الاستقصائية، تأتي الأجوبة مفاجئة بسبب طابعها التجريدي [١٠٣]. وبالرغم من ذلك، فإن القضايا المتعلقة بالتوليد موجودة في كل مكان، بما في ذلك مسائل النوع، العرق، التربية، الغذاء، التوظيف، الابتكارات التقنية، الدين أو الهوايات. ولكن ها هي العولمةـناقص التي صرفت الأنظار، بالمعنى الحرفي، عن أسباب ونتائج الأوضاع التي تم إخضاعنا لها. من

هنا تنبع الرغبة في الشكوى بصفة عامة ويتكون الانطباع بفقدان القوة اللازمة من أجل تغيير الوضع.

سوف يقول أحدهم إن إعادة وصف أماكن للعيش بهذه الطريقة مستحيلة، وأن مثل هذه الجغرافيا السياسية ليس لها معنى ولم يكن لها قط أي وجود.

ومع هذا، فقد ثمة حلقة في تاريخ فرنسا يُمكن أن تعطي فكرة عن هذا المشروع: كتابة كراسات المظالم، في الفترة من يناير إلى مايو ١٧٨٩م، قبل أن يحول المسار الثوري وصف محتوى الشكاوى إلى مطالبة بتغيير نظام الحكم - ملكي أو جمهوري. حدث ذلك بالتحديد قبل أن تُدمج كل أوصاف الشكاوى لتنتج الشكل التقليدي للسياسة بوصفها مسألة كُلِية. اليوم، نجد هذا الشكل في المسألة الجللة والطاحنة المتعلقة باستبدال الرأسمالية بنظام آخر.

خلال عدة أشهر، وبطلبٍ من ملكٍ يائس وفي وضعٍ مالي متدهور ومناخٍ متوتر، توصلت كل القرى، وكل المدن، وكل الجمعيات، دون أن ننسى المراحل الثلاث[٢٤]، إلى وصف دقيق للبيئة التي يعيشون فيها، لائحة تلو لائحة، قطعة أرض تلو الأخرى، وامتياز تلو الآخر، وضريبة تلو الأخرى[(١٠٤)].

---

٢٤ يشير الكاتب إلى قانون المراحل الثلاث «la loi des trois états» الذي أسسه المفكر الفرنسي أوجوست كونت لتحليل المراحل الثلاث للتطور العقلي والاجتماعي للإنسان.

بالطبع، كان القيام بمثل هذا الوصف أكثر سهولة في فترةٍ كان من الممكن على المرء أن يحدد بيسر أكبر من اليوم الامتيازات التي يجدها في محيطه كل يوم، حين كان من الممكن عليه أن يعاين بنظرةٍ واحدة الإقليم الذي يؤمن معيشته، بالمعنى المحدد جدًّا للكلمة والذي يُقصد به سنتجنب حدوث مجاعة.

ومع هذا، يا له من إنجاز! دائمًا ما يُطلب منا أن نهتز جذلاً أمام سرديات سقوط الباستيل أو "فالمي"، في حين أن أصالة كتابة تلك الكراسات، الكتابة-الجغرافية للمظالم، كانت على نفس القدر من الأهمية. في غضون بضعة أشهر، ونتيجةً للأزمة العامة، وتحت تأثير نماذج معروفة، تمكن الشعب، كان يُعتبر عاجزًا، من تصور الصراعات التي تخوضها الأقاليم التي كان يطالب بإصلاحها. إن وجود البشر كونهم شعبًا وقدرتهم على وصف أراضي عيشهم هما الشيء ذاته -وهذا هو بالضبط ما جردتنا منه العولمة- ناقص. فعندما ينتفي الإقليم، يختفي الشعب.

يقدم هذا الحدث التاريخي نموذجًا مذهلاً للقيام بإعادة وصف مجالات الحياة، انطلاقًا من القاعدة، وما يجعله مثار إعجاب هو أنه -فيما يبدو- لم يتكرر أبدًا.

هل من الممكن أن تكون السياسة في فرنسا لم تضطلع مجددًا بمسؤولية إدارة رهاناتها المادية بهذه الدرجة من التفصيل منذ حقبة ما قبل الثورة؟ هل سنصبح أقل قدرة من أسلافنا على صياغة مصالحنا، ومطالبنا، وشكاوينا؟

وإذا كان هذا هو السبب الذي أفرغ السياسة من كل محتوى، ألن يكون في وسعنا إعادة الكرّة؟ بالرغم من الفجوات التي أحدثتها العولمة-ناقص في كل مكان، الأمر الذي جعل من العسير علينا تحديد ما نرتبط به، إلا أنه من الصعب تصديق أننا لا نستطيع اليوم القيام بذلك بشكل جيد.

إذا كان صحيحًا أن اختفاء قوة جذب العولمي قد أربك كليًّا كل مشاريع حياة الأرضيين -ولا يقتصر الأمر على البشر وحدهم- فينبغي أن تُعطى الأولوية لاستئناف العمل على وصف كل الكائنات. على أي حال، فإن التجربة تستحق القيام بها.

اللافت في الوضع الحالي هو إلى أي درجة تشعر الشعوب المُختفية بالتشرد والضياع لعدم وجود من يمثلها ويعبر عن مصالحها، تتصرف جميعها بنفس الطريقة، أولئك الذين يتحركون مثل أولئك الذين لا يتحركون، أولئك الذين يهاجرون مثل أولئك الذين يظلون قابعين في أماكنهم، أولئك الذين يشيرون إلى أن أصولهم تنحدر من "سلالة أصلية" مثل أولئك الذين يشعرون أنهم أجانب: كما لو أن تلك الشعوب لم تكن تملك أرضًا دائمة وصالحة للحياة تحت أقدامها، وأنها كانت مضطرة للجوء إلى مكانٍ آخر.

السؤال هو ما إذا كان ظهور قوة جذب الأرضي ووصفها من الممكن أن يعيدا معنى واتجاهًا للعمل السياسي، عبر تفادي وقوع الكارثة التي قد تتمثل في الهروب المحموم نحو المحلي،

فضلاً عن تفكيك ما سُمّيَ بالنظام العالمي؟ ولكي يكون ثمة نظام عالمي، ينبغي أولاً أن يكون ثمة عالم صار قابلاً للمشاركة إلى حدٍ ما بفضل هذا الجهد المبذول لجمع وإحصاء البيانات.

في منتصف العام ٢٠١٧، يتساءل المراقبون، أو على الأقل أولئك الذين يملكون قدرًا من الحساسية إزاء الوضع، بقدر من الخوف والقلق لا يستطيعون إخفاءه، ما إذا كان في الإمكان تجنب حدوث أغسطس ١٩١٤ آخر: أي انتحار الأمم -هذه المرة سيكون على المستوى العالمي وليس الأوربي فحسب- التي سيكون قد تسرب إليها اكتئابٌ عميق للغاية لدرجة أنه سينتهي بها الحال إلى الاندفاع إلى هذا المصير بحماس ونشوة.

وفي هذه المرة، يجب عدم الاعتماد مجددًا على المساعدة المتأخرة للولايات المتحدة الأمريكية...



٢٠

بعد أن دعوت إلى استئناف المهام اللازمة لجمع وإحصاء البيانات، سيكون من غير اللائق جدًّا ألا اقوم بالتعريف بنفسي.

أنا جامعي من أسرة برجوازية ريفية، وُلدت في فترة طفرة المواليد «baby-boom» ومن ثمّ فأنا معاصرٌ تمامًا لفترة "التسارع العظيم"، ولقد استفدت كثيرًا من العولمة (ناقص وزائد على حدٍ سواء) دون أن أنسى الإقليم الذي تربطني به أسرةٌ تعمل في

تجارة النبيذ.. نبيذ "بورجون" «Bourgogne» الذي يُزعم أن تجاره عولميون منذ عهد الغاليين «les Gaulois»! ومما لا شك فيه أنني محظوظ. وللقارئ الحرية في أن يخلُص من هذا إلى أنني غير جدير بالحديث عن تلك الصراعات الجيوـاجتماعية.

من بين العديد من الموضوعات التي أوليها اهتمامي والتي أشعر بالتعلق بها، أود أن أصف اثنين بدقة: الأول يتعلق بالمناطق الحرجة وهو موضوع الأبحاث التي سوف أقوم بنشرها لاحقًا، والثاني هو ما أرغب أن أختتم به هذه التأملات.

إن الرسو هو بالضرورة الرسو في مكانٍ ما. ينبغي اعتبار ما يلي بمثابة بدء مفاوضات دبلوماسية عالية الخطورة مع أولئك الذين يُطمح في العيش المشترك معهم. حسنًا، بالنسبة لي، فأنا أريد الهبوط في أوربا!

قامت أوربا، هذه القارة العجوز، بتغيير توجهها الجيوسياسي منذ اعتقدت المملكة المتحدة بوجوب الانفصال عنها، ومنذ أخذ العالم الجديد، بفضل ترامب، يتجمد داخل نسخةٍ جديدةٍ من الحداثة، يبدو أنها تتخذ من الخمسينيات نموذجًا أعلى لها.

إن ما أتردد في تسميته بالوطن الأوربي هو ما أريد الانتقال إليه. أوربا وحيدة، هذا صحيح، ولكن أوربا وحدها التي بإمكانها أن تستأنف تاريخها. ذلك أنها تحديدًا قد مرت بأغسطس ٢٠١٤، تاركةً أثرها على بقية العالم، في موقفها ضد العولمة وضد العودة إلى الحدود الوطنية والعِرقية.

لا يخلو عيبٌ واحدٌ من عيوب أوربا من ميزة. أن تكون قارة عجوز في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عن التوليد، وليس عن الإنتاج فحسب، فتلك أفضلية وليست نقيصة. هذا بمثابة استئناف النظر في مسألة الانتقال. وهذا ما يزرع الأمل في الانتقال من الحداثي إلى المعاصر.

تُوصف أوربا بالبيروقراطية بسبب لوائحها ومجموعاتها، المعروفة بـ "التابعة لبروكسل". ومع هذا، فبوصفها ابتكارًا قانونيًّا، فهي تقدم أحد الأجوبة الأكثر إبداعًا بخصوص هذه الفكرة، التي انتشرت مجددًا في كل مكانٍ، ومفادها أن الدولةـ الأمة ستكون وحدها القادرة على حماية الشعوب وضمان أمنها.

لقد توصل الاتحاد الأوربي، من خلال مجهود مذهل، إلى تجسيد التشابك، والتداخل والتراكب بين المصالح القومية بألف طريقة. وبفضل هذا التشابك بين لوائحه، والذي تشبه في تعقيدها النظام البيئي، أعطى الاتحاد الأوربي نموذجًا يمكن اتباعه. وهذا هو بالضبط نوع التجارب التي يجب القيام بها من أجل التعامل مع التبدل المناخي الذي يتجاوز كل الحدود.

تثبت الصعوبات ذاتها التي يواجهها "البريكزيت" للخروج من الاتحاد الأوربي إلى أي درجة يتمتع هذا البناء بالأصالة؛ إذ إنه استطاع تعقيد فكرة السلطة وتقييدها بحدود محكمة. ها هي المسألة المقصودة: إذا كانت الدولةـالأمة لوقتٍ طويل قوة الدفع نحو التحديث في وجه الانتماءات القديمة، فإنها لم تعد الآن

سوى اسم آخر للمحلي. إنها لم تعد المرادف لعالم صالح للسكن.

يُقال إن أوربا كونها قارةً قد ارتكبت خطيئة التمركز العرقي وأنها زعمت السيطرة على العالم، وهو ما يوجب تحويلها إلى "إقليمية" لإعادتها إلى مساحة ذات أبعاد عادلة [١٠٥]. ولكن اليوم، تحويل أوربا إلى أقاليم نائية «provincialisation» هو طوق نجاتها.

قال "بيتر سلوترجيك" «Peter Sloterdijk» يومًا إن أوربا كانت ناديًا للأمم التي قد تخلت بشكل قاطع عن الإمبراطوريات. لندع أنصار "البريكزيت"، ونَاخبي ترامب، والأتراك، والصينيين، والروس ينغمسون في أحلامهم بالهيمنة الإمبريالية [١٠٦]. نحن نعرف أنهم إذا كانوا لا يزالون يتمنون السيطرة على إقليم، بمعنى رسم خرائط، ففرصتهم ليست أكبر من فرصتنا في السيطرة على الأرض، التي تسيطر علينا مثلما يسيطرون علينا هم أيضًا.

تدرك أوربا هشاشة استحواذها على الفضاء العالمي. لم تعد تستطيع التظاهر بأنها تملي رؤيتها على النظام العالمي، لا، ولكن يمكنها أن تقدم نموذجًا لما يعنيه إيجاد أرض قابلة للعيش.

في نهاية الأمر، إنها هي من زعمت ابتكار الكوكب، بمعنى كونه مكانًا تعينه أجهزة رسم الخرائط. نظام إحداثيات قوي جدًّا ـقوي إلى أبعد حدـ بحيث يسمح بتسجيل، وحفظ، وترسيخ تعددية أشكال الحياة. هذا هو التمثيل الأول للعالم

المشترك: على نحوٍ مبسَط بالتأكيد، ولكنه مشترَك، متمركز عنصريًا بالطبع، ولكنه مشترَك، مُمَوْضِع «objectivant» بالفعل، ولكنه مشترَك.

لقد قيل كل ما يمكن لمناهضة هذه الرؤية الخرائطية، التي تسعى لتوحيد العالَم بصورةٍ مبالغ فيها، بما في ذلك ما قلته أنا شخصيًا، ولكن تظل الحقيقة هي أن هذه الرؤية هي من سمحت باقتراح أول مرجع من شأنه إطلاق مشروع دبلوماسي.

وكونها لم تستطع منع الكوكب من الإفلات من يدها والتحول إلى عولمي، فذلك يفرض عليها مسؤولية كبيرة. المطلوب منها هو "نزع عولمة" هذا المشروع من أجل أن تُعيد إليه فضائله. بالرغم من كل شيء، فهي التي ما زال عليها التصدي لمهمة إعادة تعريف سيادة الدول-الأمم؛ إذ إنها هي من ابتكرت نموذج سيادة الدولة-الأمة.

نعم، كانت أوربا خطيرة حين اعتقدت أن باستطاعتها "الهيمنة" على العالم، ولكن ألا ترون أنها ستصبح أكثر خطورة إن قلّصت حجمها وسعت مثل فأرٍ صغير إلى الاختباء من التاريخ؟ كيف سيمكن لها الفرار من دعوتها للتذكير، بكل ما تعنيه كلمة "تذكير"، بشكل الحداثة الذي ابتكرته؟ بسبب الجرائم التي ارتكبتها، غير مسموح لها التصرف بتدنٍ.

من بين هذه الجرائم، ثمة واحدة هي الأكثر الخطورة، ألا وهي أنها اعتقدت بأن في مقدورها الاستقرار في أماكن، وأقاليم، وبلاد، وثقافات، وكان من الواجب إما إبادة

سكانها، أو استبدال أنماط حياتهم بالأنماط الخاصة بها، باسم "الحضارة" الضرورية. وكما نعلم، هذه هي الجريمة التي صاغت صورة الكرة الأرضية، وشكلها العالمي.

غير أن هذه الجريمة بالذات هي أحد أوراقها الرابحة: فهي تخلصها إلى الأبد من البراءة، من فكرة إمكانية المرء إما صناعة تاريخ جديد عبر القطيعة مع الماضي، أو الهرب من التاريخ بلا رجعة.

إذا كانت أوربا الموحدة الأولى قد قامت من الأسفل ـ الفحم، الحديد، والصلب ـ فإن في وسع الثانية أيضًا أن تنهض من الأسفل، المادة المتواضعة لتربة مستدامة إلى حدٍ ما. إذا كانت أوربا المتحدة الأولى قد نشأت من أجل منح مترل مشترك للملايين من "الأشخاص النازحين"، كما كان يقال في نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن الثانية أيضًا سوف تقوم بأيدٍ ومن أجل الأشخاص النازحين اليوم.

ليس ثمة معنى لأوربا إن لم تقم بإعادة النظر في الفجوات التي سببها التحديث. ذلك هو أفضل معنى يمكن أن تنطوي عليه فكرة تحديث انعكاسية (١٠٧).

على أي حال، ثمة معنى آخر للانعكاسية تجده أوربا مفروضًا عليها: رد الفعل الانعكاسي الناتج عن صدمة العولمة. فإن كانت قد نسيته، فستذكرها الهجرات بأن ليس في وسعها الإفلات من أفعالها السابقة.

يشعر أشخاص سيئو النية بالسخط من قيام أعداد هائلة من الناس بعبور حدود أوربا للاستقرار بوقاحة "بيننا" وللعيش "كما لو كانوا في بلدانهم". وهو ما كان ينبغي التفكير به قبل ذلك، قبل "الاكتشافات العظيمة"، قبل "الاستعمار"، قبل إنهاء الاستعمار.

إن كنتم خائفين من الاستبدال الكبير، فكان عليكم عدم البدء باستبدال "الأراضي البكر" بأنماط حياتكم.

تسير الأمور كما لو أن أوربا كانت قد أبرمت مع المهاجرين المحتمَلين اتفاقًا لمدة مئة عام: لقد جئنا إليكم دون أن نطلب منكم شيئًا، سوف تأتون إلينا دون أن تطلبوا منا شيئًا. أخذ وعطاء. لا مفر من هذا. فبعد أن غزت كل الشعوب، تعود إليها كل الشعوب.

كما أن أوربا قد أبرمت اتفاقًا آخر مع الأرضيين الآخرين الذين شرعوا هم أيضًا في التحرك صوب حدودها: مياه المحيطات، أنهار جافة أو غمرتها الفيضانات، غابات مضطرة إلى الهجرة سريعًا قبل أن يدركها التبدل المناخي، ميكروبات وطفيليات، كلها تتطلع بدروها إلى الاستبدال الكبير. لقد جئتم إلينا دون أن تطلبوا منا شيئًا، سوف نأتي إليكم دون أن نطلب منكم شيئًا. بعد أن استفاد الأوربيون من كل الموارد، بدأت هذه الموارد وقد صارت فاعلة باعتباره حقها بطبيعة الحال في التحرك، مثل غابة "بيرنام" «Biernam»، لاسترداد خيراتها.

يمكن أن تتلاقى بصورةٍ جزئية على أرضها القضايا الثلاث الكبرى في الوقت الراهن: كيف يمكن الانسحاب من العولمة ـ ناقص؟ كيف يمكن تحمل خسائر رد فعل النظام الأرضي على أفعال الإنسان؟ كيف يمكن التنسيق من أجل استقبال اللاجئين؟

لا يعني هذا أن الآخرين لن يقوموا بذلك. يعني هذا أن على أوربا، نظرًا لماضيها، أن تقوم بالخطوة الأولى لأنها تتحمل المسؤولية الأولى.

ولكن أي أوربا؟ من هو الأوربي؟ كيف يمكن الربط بين المفردة الجميلة لمجال الحياة وشيء بيروقراطي كهذا وبلا روح؟

أوربا بلا روح! أنتم لا تعرفونها حقًّا! إنها تتحدث عشرات اللغات ـ وبفضل أولئك اللاجئين صارت تتحدث آلاف اللغات. إنها تشغل المئات من الأنظمة المناخية البيئية المختلفة من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها. وفي كل أنحائها، في كل ثنية أراضٍ، في كل زاوية شارعٍ، أثر للمعارك التي ربطت كل واحدٍ من سكانها بالآخرين. وبها مدن، ويا لها من مدن! أوربا هي أرخبيل المدن الفخمة. انظروا إليها هذه المدن وسوف تدركون لماذا يتجه نحوها من كل الأرجاء من يرغب في الحصول على فرصة للعيش بها ـ ولو كان على أطرافها.

لقد حاكت وفككت بكل السبل الممكنة حدود وفضائل السيادة. لقد ذاقت منذ قرون خبز الديمقراطية. إنها صغيرة بما يكفي لأن تدرك أنها ليست العالم، وكبيرة بما يكفي لعدم

اكتفائها بحدود قطعة أرض صغيرة. إنها غنية، غنية بشكل لا يُصدق، وغناها مرهون بأرضٍ لم تُدمَّر بالكامل ـ يرجع جزء من السبب في ذلك إلى أنها ـكما هو معروفـ غزت ودمرت أراضي الآخرين!

وما يُصدق بالكاد، أنها قد نجحت في الحفاظ على ريفٍ، ومناظر طبيعية، وإدارات، بل وحتى مقاطعات ـدول لم تتعرض بعد للتفكيك.

واحدة من مزاياها الأخرى التي تنبع من مساوئها: بعد أن جعلت اقتصادها يمتد ليشمل الكرة الأرضية، تمكنت من ألا يصيبها كليًّا سُمُّه. ويحمله بداخله كل من النزعة الاقتصادية والمشروع التحديثي: إنه سم تصدير عرف الأوربيون كيف يحصنوا أنفسهم إلى حدٍّ ما منه عن طريق ترياق مُرَكَّب.

أليست حدود أوربا واضحة؟ ألا تعرفون أين تنتهي؟ ولكن أي كائنٍ حي أرضي يمكننا أن نحدد أين يبدأ وأين ينتهي؟ أوربا عالمية بطريقتها الخاصة، مثل كل المنظومات الأرضية.

يبدو أن ثقافات أخرى تعتبرها "منحطة" وتزعم معارضة طرق عيشها: فلتُظهر فضيلتها، تلك الشعوب التي لا تحتاج إلى الديمقراطية، وسوف نترك للشعوب الأخرى الحكم.

ها هي أوربا تستأنف ماضيها. لقد أرادت أن تكون العالم كله. لقد قامت بأول محاولة للانتحار.. ثم محاولة أخرى. كانتا على وشك النجاح. ثم اعتقدت أنها فرت من التاريخ بعد أن وضعت نفسها تحت المظلة الأميركية. وهذه المظلة الأخلاقية

والذرية تراجعت. إنها وحيدة وبلا حماية. هذه هي بالضبط اللحظة المناسبة لدخول التاريخ دون أن تتصور أن بمقدورها السيطرة عليه [١٠٨].

أهي مقاطعة؟ حسنًا، هذا هو بالضبط ما يحتاج المرء إليه: تجربة محلية، نعم، تجربة ريفية لما يكون عليه الوضع حين يستقر أحدهم في أرض بعد تحديثها، مع أولئك الذين قام التحديث بتشتيتهم تمامًا.

مثلما كان الحال في بداية تاريخها، فإنها تستأنف مسألة العالمية، ولكن، هذه المرة، دون أن تتعجل في فرض أحكامها المسبقة على بقية العالم. لا شيء يضاهي قارة عجوزًا تستأنف ـ بكلفة جديدة ـ ما هو مشترك وتدرك ـ وهي ترتجف ـ أن الظرف العالمي اليوم يعني العيش على أنقاض التحديث، مع السعي لتلمس مكان للاستقرار.

وفي نهاية المطاف، إن استئناف مسألة العالم المشترك في لحظة انتكاسة مفاجئة نحو البربرية، وفي الوقت الذي تخلى فيه من كانوا يشكلون "الغرب" عن فكرة تشكيل نظام عالمي ألا يشكل ذلك نسخةً أكثر إيجابية من تاريخ أوربا الألفي؟

إن الأرض التي أرادت أوربا الاستيلاء عليها كونها كوكبًا، تظهر أمامها اليوم من جديد بوصفها الأرضي، وهذه فرصة ثانية لم تكن تستحقها أبدًا. ها هو ما يليق بهذه المنطقة من العالم، والتي تواجهها المسؤولية الأكبر في تاريخ الفوران البيئي. هذه نقيصة أخرى يمكن أن تصب في مصلحتها.

كيف يمكن الشك في قدرتها على أن تصبح واحدًا من الأوطان لأولئك الذين يبحثون عن أرض. "يصبح من يود المرء أوربيًّا". أريد أن أفتخر بها، بأوربا، تكسوها التجاعيد، وتملؤها الندبات، أريد أن أسميها بلدي ـ ملجأهم.

ها أنا، قد وصلت إلى النهاية. الآن، إن شئتم، جاء دوركم كي تقدموا أنفسكم، لنعرف تقريبًا أين تتمنون الرسو؟ ومع من تقبلون العيش المشترك؟



استفدت خلال العمل على المسودة الأولى من هذا النص من الملاحظات المفصّلة لـ "ألكسندرا آرينيس" (التي أدين لها بالرسوم التوضيحية)، وبيير شاربونيه، وديبورا دانوفيسكي، وجيرار دو فري، ومايليس دوبون، وجان ميشيل فرودون، وفرانسوا جيمين، وجاك غرينفالد، وإيلي هاش، وغراهام هارمان، وشانتال لابور، وآن لو سترا، وبابتيست موريزوت، ودومينيك بيستر، وإيزابيل ستينجرز، وكلارا سودان. وقد سعيتُ لأخذ كل تلك الملاحظات بعين الاعتبار.

بعض مقاطع هذا النص مقتطفة من:

«L'Europe seule. Seule l'Europe», *in* Benoît HAMON, Yannick JADOT et Michel WIEWORKA (dir.), *La Politique est à nous*, Robert Laffont, Paris, 2017, p. 269-276,

"أوربا فقط. فقط أوربا"، في كتاب "السياسة لنا":

«L'Europe refuge» *in* Heinrich GEISELBERGER (dir.), *L'Âge de la régression*, Premier parallèle, Paris, 2017, p. 115-126,

"أوربا اللجوء" في كتاب "زمن الانحسار":

فضلاً عن مقالات من الصحف:

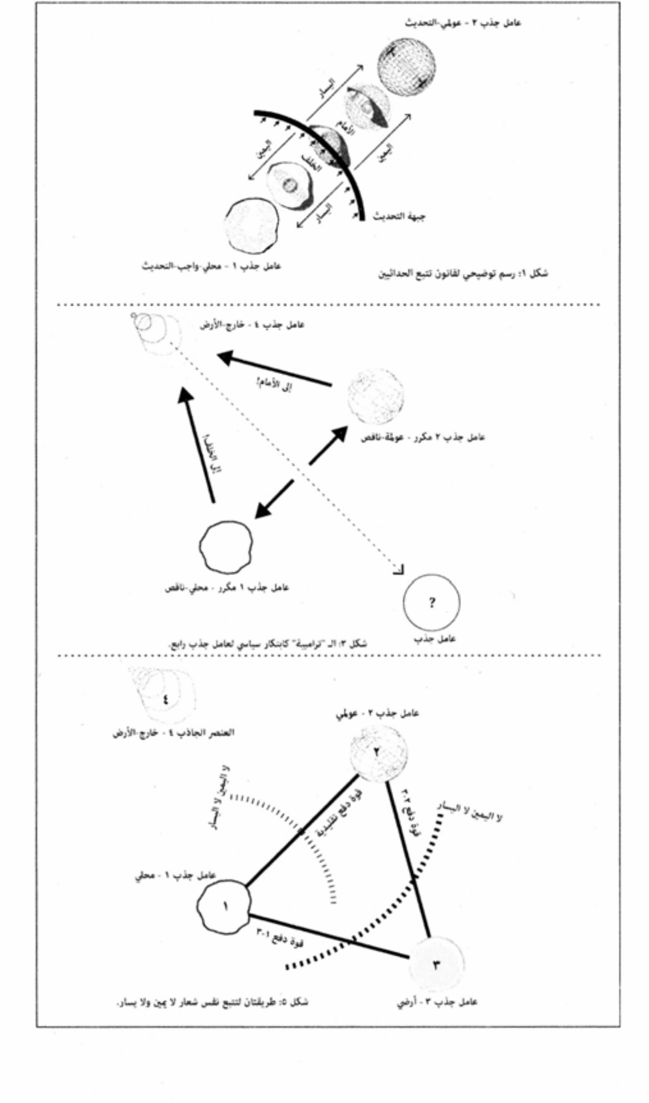
«Propositions pour recaler nos GPS politiques», *Libération*, 3 février 2016,

"مقترحات لإعادة توجيه GPS مجالنا السياسي"، ومن:

«Comment ne pas se tromper sur Trump», *Le Monde*, 13 décembre 2016,

"كيف لا ننخدع بترامب"؟

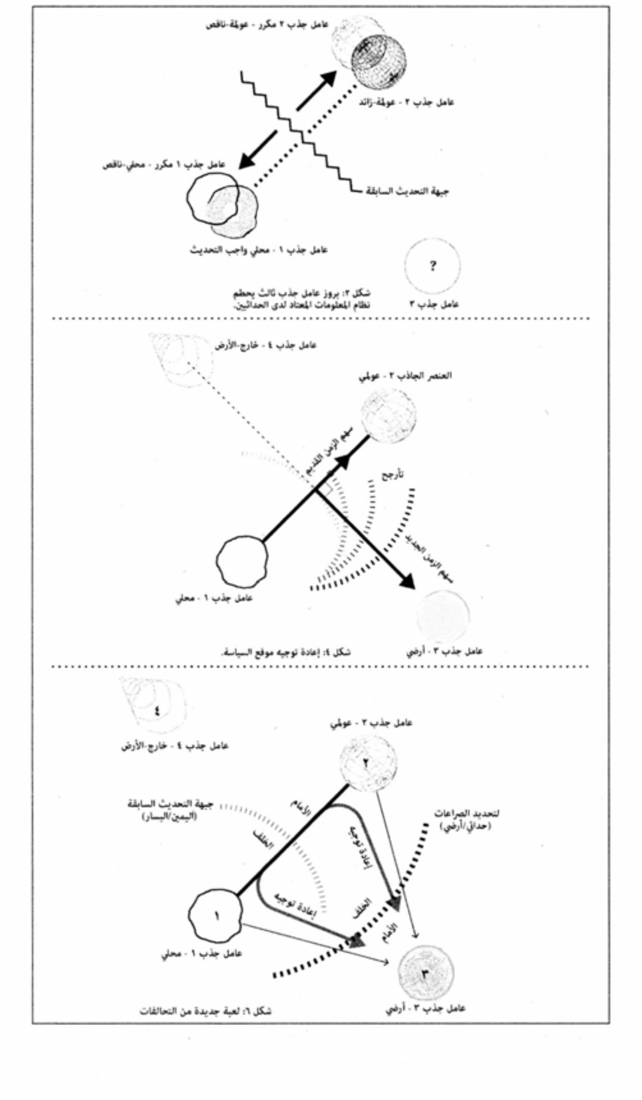
تم إجراء جزء من أبحاث هذه الدراسة بفضل مشروع "سياسات الأرض في زمن الأنثروبوسين"، جامعة باريس ـ سوربون ـ سيتيه العلوم السياسية USPC-Sciences Po..



شكل ١: رسم توضيحي لقانون تتبع الحداثيين

شكل ٣: الـ "ترامبية" كابتكار سياسي لعامل جذب رابع.

شكل ٥: طريقتان لتتبع نفس شعار لا يمين ولا يسار.



شكل ٣: بروز عامل جذب ثالث يحطم نظام المعلومات المعتاد لدى الحداثيين.

شكل ٤: إعادة توجيه موقع السياسة.

شكل ٦: لعبة جديدة من التحالفات

هوامش

١. من أقوال صهر دونالد ترامب، أوردتها: Sarah Vowell, *New York Times*, 9 août 2017.

2. Francis FUKUYAMA, *La Fin de l'histoire ou le dernier homme*, Flammarion, Paris, 1992.

"نهاية التاريخ أو الإنسان الأخير."

٣. طوَّرَ برونو لاتور تعبير "النظام البيئي الجديد" في:
Bruno LATOUR, *Face à Gaïa. Huit conférences sur le Nouveau Régime Climatique*, Les Empêcheurs de penser en rond/La Découverte, Paris, 2015.

"في مواجهة غايا. ثماني محاضرات عن النظام المناخي الجديد".

٤. لقد بذل الكاثوليكيون كل ما يمكن من أجل تجاهل العلاقة بين الفقر والكارثة البيئية، وهو ما عبر عنه بوضوح البابا فرانسوا في خطبته: "المجد له"!
François, *Laudato Si !*, Vatican, Saint-Siège, 2015.

٥. حتى الرئيس ماكرون، المعروف بلا مبالاته إزاء هذه القضايا، وجد نفسه مضطرًا للانخراط فيها لدرجة أنه شارك في "هاشتاج": "لنجعل الأرض عظيمة من جديد"!
MaketheEarthGreatAgain!

6. Dina IONESCO, Daria MOKHNACHEVA et François GEMENNE, *Atlas des migrations environnementales*, Presses de Sciences Po, Paris, 2016.

"أطلس الهجرات البيئية"

٧. إن قراءة الـ INDC (وهو ما يُطلق عليها في المصطلحات الفنية الخاصة بمنظمة الأمم المتحدة: "إسهامات موجهة محددة قوميًا" " Intended Nationnally Determined Contributions") والتي تم إعدادها من أجل الـ COP21 تقدم عرضًا لمشاريع التنمية الخاصة بكل بلد. انظر الرابط:

<diplomatie.gouv.fr/fr/politique-etrangere-de-la-france/climat/paris-2015-cop21/les-contributions-nationales-pour-la-cop-21>

تاريخ زيارة الموقع ٧ أغسطس ٢٠١٧.

٨. تعبير "تعلم العيش بين الأنقاض" مأخوذ من الكتاب بالغ الأهمية لـ:
Anna LOWENHAUPT TSING, *Le Champignon de la fin du monde. Sur les possibilités de vivre dans les ruines du capitalisme* (trad. Philippe Pignarre), Les Empêcheurs de penser en rond/La Découverte, Paris, 2017.

"فطر نهاية العالم، عن إمكانيات العيش بين أنقاض الرأسمالية" (الترجمة الفرنسية)

لقد أعيد استخدام هذه الحجة وتطويرها عبر تناول أمثلة أخرى في:
Anna LOWENHAUPT TSING, Nils BUBANDT, Elaine GANET, Heather Anne SWANSON (dir.), *Arts of Living on a Damaged Planet: Ghosts and Monsters of the Anthropocene*, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2017.

"فنون العيش على كوكب مُدَمَّر: أشباح ووحوش الأنتروبوسين".

٩. تم تناول فكرة جبهة التحديث والطريقة التي تتوزع بها المشاعر السياسية في:
Bruno LATOUR, *Nous n'avons jamais été modernes. Essai d'anthropologie symétrique*, La Découverte, Paris, 1991.

"لم نكن حداثيين قط. مقال في الأنتروبولوجيا السيمترية".

10. Karl POLANYI, *La Grande Transformation. Aux origines politiques et économiques de notre temps*, Gallimard, Paris, 1983 [1945].

"التغيير الكبير، في الأصول السياسية والاقتصادية لعصرنا".

١١. تشير مفردة أرض «terre» بصفةٍ عامة إلى الإطار التقليدي للنشاط الإنساني (البشر داخل الطبيعة)، وتشير «Terre» بالمعنى الخاص إلى قوة الفعل التي تمكن من التعرف على فعل باعتباره يؤدي وظيفة سياسية.

١٢. بخصوص هذا التاريخ راجع، من بين أعمالٍ أخرى، كتاب:
Spencer WEART, *The Discovery of Global Warming*, Harvard University Press, Cambridge, Mass., 2003.

"اكتشاف الاحتباس الحراري"

13. Jean-Baptiste FRESSOZ, *L'Apocalypse joyeuse. Une histoire du risque technologique*, Seuil, Paris, 2012.

"القيامة المرحة، تاريخ المغامرة التكنولوجية"

14. Naomi ORESKES et Erik M. CONWAY, *Les Marchands de doute* (trad. Jacques Treiner), Le Pommier, Paris, 2012.

"تجار الشك" (الترجمة الفرنسية)

١٥. من الواضح أن التأريخ غامض جدًّا، ولكنه لا يتناقض مع المعطيات التي أوردها:

Thomas PIKETTY, *Le Capital au XXI[e] siècle*, Seuil, Paris, 2013.

"رأس المال في القرن الحادي والعشرين"، والتي تم تناولها في مبحث بالغ الدقة عن الطريقة التي قام بها العِلم الاقتصادي بالتهام وتحييد علم البيئة. انظر على وجه الخصوص:

Dominique PESTRE, «La mise en économie de l'environnement comme règle, 1970-2010. Entre théologie économique, pragmatisme et hégémonie politique», *Écologie et Politique*, 52, 2016.

"تناول الاقتصاد للبيئة كقاعدة، ١٩٧٠-٢٠١٠. بين اللاهوتية الاقتصادية، البراجماتية، والهيمنة السياسية" في "الإيكولوجيا والسياسة".

ويمكن الاستعانة بردود الأفعال على تقرير نادي روما لعام ١٩٧٢ باعتبارها نقطة مرجعية في تلك القضية المتعلقة بالتسلسل الزمني. انظر رسالة الدكتوراه:

Élodie VIEILLE-BLANCHARD, *Les Limites à la croissance dans un monde global. Modélisations, prospectives, réfutations*, Thèse, EHESS, Paris, 2011.

"حدود النمو في عالم شامل. نمذجة، استشراف، تفنيد حجج".

١٦. من أجل التعرف على وصف مدهش للسمات النفسية لمالك التيتانيك الذي نجا من الغرق، انظر:

Frances WILSON, *How to Survive the Titanic: The Sinking of J. Bruce Ismay*, Harper, New York, 2012.

"كيف أمكن النجاة من التيتانيك: غرق ج. بروس إسمي"

١٧. مقالتان بقلم:

David KAISER et Lee WASSER-MAN, «The Rockefeller family fund takes on Exxon Mobil», *New York Review of Books*, 8 et 22 décembre 2016.

"صندوق عائلة روكفلر يستحوذ على إكسون موبيل" في "مراجعات النيويورك للكتب"؛

Geoffrey SUPRAN et Naomi ORESKES, «Assessing ExxonMobil's climate change communications (1977-2014)», *Environnemental Research Letters*, 12, 2017.

و"تقييم اتصالات إكسون موبيل بشأن تغيير المناخ (١٩٧٧_٢٠١٤)"

18. Evan OSNOS, « Quand les ultra-riches se préparent au pire », *Le Crieur*, 7, 2017, p. 7-21 (traduit du *New Yorker*, 30 janvier 2017).

"عندما يستعد فاحشو الثراء للأسوأ" (مترجم عن الإنجليزية).

١٩. إن مشكلة نظريات المؤامرة، كما رآها "لوك بولتانسكي"، هي أنها تمثل أحيانًا كل ما هو أكثر واقعية من أي شيءٍ آخر.

(Luc BOLTANSKI, *Énigmes et Complots. Une enquête à propos d'enquêtes*, Gallimard, Paris, 2012).

("ألغاز ومؤامرات. تحقيق حول الدراسات الاستقصائية")

يميل القارئ إلى تصديق هذا الأمر عند قراءته للكتاب الجديد لـ:

Nancy MACLEAN, *Democracy in Chains: The Deep History of the Radical Right's Stealth Plan for America*, Penguin Random House, Londres, 2017.

"الديمقراطية مقيدة بالأغلال: التاريخ العميق للمخطط السري لليمين الراديكالي في أمريكا".

20. Dominique PESTRE, *Introduction aux* Science Studies, La Découverte, Paris, 2006.

"مقدمة إلى دراسات العلوم"، ومن أجل مراجعة وملخص تربوي للكتاب:

Bruno LATOUR, *Cogitamus. Six lettres sur les humanités scientifiques*, La Découverte, Paris, 2010.

"كوجيتاموس. ست خطابات عن العلوم الإنسانية العلمية".

21. James HOGGAN, *Climate Cover-Up. The Crusade to Deny Global Warming*, Greystone Books, Vancouver, 2009.

"الغطاء البيئي. الحملة الرامية إلى إنكار الاحترار العلمي".

22. Erik M. CONWAY et Naomi ORESKES, *L'Effondrement de la civilisation occidentale* (trad. par Françoise et Paul Chemla), Les liens qui libèrent, Paris, 2014.

"انهيار الحضارة الغربية" (الترجمة الفرنسية)، هذ الكتاب الصغير جدًا والمربك جدًا.

٢٣. هذا لا يعني أن المعلقين على دراية بالأمر. في كتاب نشر باثنتي عشرة لغة ويضم آراء المثقفين بخصوص "الانحطاط الكبير" ـبعبارةٍ أخرى الدهشة التي انتابتهم أمام "صعود الشعبوية"ـ يتناول فصلاً واحدًا، من تأليفي، يتناول هذا الموضوع:
Heinrich GEISELBERGER (dir.), *L'Âge de la régression*, Premier parallèle, Paris, 2017.

"عصر الانحطاط".

٢٤. انظر موقع جامعة «l'université de la singularité» : <su.org> ، تمت زيارة الموقع ٧ أغسطس ٢٠١٧.

٢٥. تعاظم الأصوات، من اليمين واليسار على حد سواء، المطالبة بالتمسك بهوية محددة وبتعريف السياسة باعتبارها ارتباطًا بقيم غير قابلة للنقاش، هذا الأمر يبين أن القطب الثاني: أي الكوكب، قد كف عن ممارسة بهذا الجذب الذي كان يسمح بصهر هذه العناصر في مشروع العالمية.

٢٦. أشكر "جان-ميشيل فرودون" «Jean-Michel Frodon» على هذا الربط بفيلم "سولي" «Sully»، 2016.

٢٧. يبين النص الذي كتبه:
Eric HAZAN et de Julien COUPAT dans *Libération*, 24 janvier 2016,
أن الأمر لا يتعلق بالرضوخ لقوة الدفع التقليدية: "نحن عازمون على الشروع في إقصاء كل جوانب الوجود الحالي. في الأعوام الأخيرة، لقد أثبتنا بقدرٍ كافٍ وجود حلفاء لهذا الأمر في كل مكان. إن كل ما تتعلق حيواتنا به، وكل ما يميل دائمًا إلى الإفلات منا، يتعين علينا إعادته إلى الأرض واستعادة التحكم فيه. إن ما نعده ليس هجومًا، وإنما حركة مستمرة من الطرح، من التدمير المتأني، الناعم والمنهجي لأي سياسة تحلق فوق العالم الملموس". استخدمت الخط السميك لتسليط الضوء على بعض الجمل. قد يمكن لهذا الإقصاء ـربما تكون كلمة استعادة أكثر دقةـ من ترجمة جيدة للكلمة الإنجليزية «reclaim».

٢٨. يختلف عن الفكر المحافظ كما يوضحه مقال:
Jeremy W. PETERS, "They're building a Trump-centric movement. But don't call it Trumpism", *New York Times*, 5 août 2017.

"إنهم يقيمون حركة مركزية ترامبية. ولكن لا نُسمها بالترامبية".

٢٩. منذ نهاية القرن العشرين، باتت مسألة المناخ موضوعًا حاسمًا في تعريف الجمهوريين مثلها مثل الإجهاض أو مناهضة الداروينية. من أجل طمس المعلومات حول المسألة المناخية، يتبع "سكوت بروت"، المدير الجديد لـ EPA (مكتب حماية البيئة «Office de protection de l'environnement»)، في إستراتيجيته سياسة أكثر تماسكًا من سياسة رئيسه.

٣٠. مع هذا الابتكار المثير للاهتمام الذي يعتبر أن قوة النار ليست فقط قوة الأسلحة الذرية أو لا، وإنما، تبعًا للنماذج، هي قوة مناخ يبلغ +٣,٥ درجة مئوية، ويتحدث البعض عن +٥ درجات مئوية، ٧ درجات مئوية، بل حتى +٨ درجات...

٣١. تم تناول موضوع الجيوتاريخ في مقال شهير لـ:
Dipesh CHAKRABARTY, «The climate of history: Four theses», *Critical Enquiry*, 35, hiver 2009, p. 197-222.

"بيئة التاريخ: أربع قراءات".
انظر باللغة الفرنسية الفصل المتضمن في مجموعة دراسات من تحرير:
Émilie HACHE (dir.), *De l'univers clos au monde infini*, Édilions Dehors, Paris, 2014.

"من الكون المغلق إلى العالم اللانهائي"

32. Émilie HACHE, *Reclaim. Recueil de textes écoféministes*, Cambourakis, Paris, 2016.

"استعادة. مجموعة نصوص نسوية مهمومة بقضايا البيئة".

٣٣. رسم ميشيل تورنييه صورة لهذه الروح الحداثية أثناء فترة إعادة التعلم، في شخصية "كروزو" الذي يتعين على "فوندرودي" أن يشرح له بصبرٍ كيف يجب عليه التصرف على جزيرته كي لا يظل، كما كان، غريبًا. انعكاسٌ آخر للروابط بين المالك والممتلكات، يبلغ هذا الانعكاس من القوة ما يجعل "كروزو" يقرر في نهاية الأمر البقاء على جزيرة "سبيرانزا"!
Michel TOURNIER, *Vendredi ou les limbes du Pacifique*, Gallimard, Paris, 1967 .

"فوندروري-الجُمعة أو ضفاف المحيط الهادئ".

34. Clive HAMILTON, Christophe BONNEUIL et François GEMENNE, *The Anthropocene and the Global Environment Crisis: Rethinking Modernity in a New Epoch*, Roulledge, Londres, 2015.

"الأنثروبوسين وأزمة البيئة العالمية: إعادة النظر في الحداثة خلال حقبة جديدة".

٣٥. عرض لافت في كتاب:
Timothy LENTON, *Earth System Science*, Oxford University Press, Oxford, 2016.
"علم نظام الأرض".

٣٦. من هنا الخلاف الحاد حول عودة أو عدم عودة صورة الإنسان بوصفه فاعلاً أساسيًا. ويمكن ذكر نموذجين أقصيين:
Donna HARAWAY, *Staying with the Trouble: Making Kin in the Chthulucene*, Duke University Press, Durham, 2016,
"التعايش مع الخطر: إنشاء قرابات في ظل التحلل الحيوي للأرض".
et Clive HAMILTON, *Defiant Earth: The Fate of Humans in the Anthropocene*, Polity Press, Cambridge, 2017.
و"تحدي الأرض، مصير البشر في الأنثروبوسين".

٣٧. أشكر أوريليان غامبوني وساندرين توكسيدو، لقيامهما بهذا الربط بين "بو" «Poe» وأزمة المناخ.

٣٨. حول قدم القلق الذي نطلق عليه بأثر رجعي "بيئي"، وهو ما يعادل استكشاف التقاليد الرومانسية على وجه الخصوص، انظر:
Serge AUDIER, *La Société écologique et ses ennemis. Pour une histoire alternative de l'émancipation*, La Découverte, Paris, 2017.

"المجتمع البيئي وخصومه. من أجل تاريخ بديل للتحرر".

39. <globalwitness.org/en/campaigns/environmental- activists/ dangerous - ground>
تاريخ زيارة الموقع ٧ أغسطس ٢٠١٧.

40. Bruno KARSENTI et Cyril LEMIEUX, *Socialisme et sociologie*, Éditions de l'EHESS, Paris, 2017,

"الاشتراكية وعلم الاجتماع"، بحذر لا يمكن حصره، ينتهي الكاتبان بالاعتراف بأن علم البيئة قد يكون لديه ما يُقال بشأن "مجتمع"، ربما كان "دوركهام" هو أيضًا قد قَبِلَ بتوسيع قاعدته...

٤١. بخصوص كل هذه النقاط، أشكر آن لوسترات «Anne Le Strat» لمشاركتها إياي تجربتها باعتبارها عضوة منتخبة ومستشارة.

٤٢. من بلير إلى ماكرون. ولكن أيضًا، وبصورةٍ أكثر جدية، في النظرية الاجتماعية. انظر:

Anthony GIDDENS, *Beyond Left and Right: The Future of Radical Politics*, Polity Press, Londres, 1994.

"ما وراء اليسار واليمين: مستقبل السياسة الراديكالية".

٤٣. هذا هو المعنى الذي يعطيه جيل دولوز في كثير من الأحيان لهذا الاختلاف: سيكون طبيعيًا وليس عارضًا.

٤٤. تلك هي مشكلة المؤثرات التي نجمت عن مسألة تراجع النمو. في أفق الحداثة، لا يمكن تراجع النمو دون حدوث ارتداد. أو يجب تغيير الأفق. ومن هنا تأتي اهمية اقتراح مفردات أخرى، ربما ازدهار كما يقترح مايلز دوبون. عندئذٍ، على امتداد قوة الدفع الجديدة، عند تعذر تحقيق التقدم، يمكن على الأقل للمرء أن يأمل في الازدهار.

٤٥. اشكر بيير شاربونيه على تأكيده على اهمية هذه الاستمرارية. تدين الأقسام التالية بالكثير لبحثه الجاري. انظر أيضًا:

Pierre CHARBONNIER, Bruno LATOUR et Baptiste MORIZOT, «Redécouvrir la terre», *Tracés*, 2017, p. 227-252.

"إعادة اكتشاف الأرض" في كتاب "مسارات مرسومة".

٤٦. تقترح آنا تسينغ رسمًا توضيحيًا أفضل من ذلك الذي يتعين على التقاط اي رهان باعتباره ممزقًا بين عوامل الجذب الأربعة. وهو ما سيكون في الواقع أكثر واقعية، ولكنه ببساطة أصعب في رسمه. ورد هذا الاقتراح أثناء اتصال شخصي بها، في أرهوس، في يونيو ٢٠١٦.

47. Bruno LATOUR et Peter WEIBEL, *Making Things Public: Atmospheres of Democracy*, MIT Press, Cambridge, Mass, 2005.

"نشر الأشياء على العامة: أجواء الديمقراطية".

48. Noortje MARRES, *Material Participation: Technology, the Environment and Everyday Publics*, Palgrave, Londres, 2012.

"التشارك المادي، التكنولوجيا، البيئة، والجماهير اليومية".
نحن مدينون للكاتب بالشعار الجميل: "لا قضية، لا سياسات".

49. Karl POLANYI, *La Grande Transformation*, *op. cit.*

"التبدل الكبير"، السابق ذكره.

٥٠. إن الصعوبات التي يواجهها علماء الاجتماع الاجتماعي فقط من أجل تحديد موقع سوسيولوجيا الجمعيات (وتسمى أيضًا الفاعل الشبكي) تقدم توازيًا شبه مثاليًا لبطء الحركات الاشتراكية في معرفة كيفية التعامل مع المسائل البيئية. ولنذكر أن "جماعيًا" هي المفردة التي تسمح بالإحلال محل "اجتماعي"، مع توسيع نطاق الجمعيات المندرجة تحت هذا المسمى.

Bruno LATOUR, *Changer de société-refaire de la sociologie* (trad. O. Guilhot), La Découverte, Paris, 2006.

"تغير المجتمع. إعادة تشكيل علم الاجتماع" (الترجمة الفرنسية).

٥١. يشير هذا المصطلح إلى النمو الاستثنائي لتأثير النشاط الإنساني على الكوكب، والذي بدأ في الظهور بعد الحرب. هذه هي -إن جاز القول- النسخة الديستوبية "للعصر الذهبي لما بعد الحرب".

Will STEFFEN, Wendy BROADGATE, Lisa DEUTSCH, Owen GAFFNEY et Cornelia LUDWIG, «The trajectory of the anthropocene: The great acceleration», *The Anthropocene Review*, 1-18, 2015.

"مسار الأنتروبوسين: التسارع العظيم" في "مجلة الآنتروبوسين".

٥٢. لا تزال الشكاوى المستمرة المتعلقة بـ "نهاية الفكر الثوري"، بضرورة "خلق يوتوبيات جديدة"، أو باقتراح "أساطير جديدة من أجل الحشد" تشدد على هذا الحصار. العديد من الطرق من أجل مواصلة الحلم بصوتٍ عالٍ بالمسار التاريخي ذاته.

53. Pierre CHARBONNIER, «Le socialisme est-il une politique de la nature ? Une lecture écologique de Karl Polanyi», *Incidences*, 11, 2015, p. 183-204.

"هل الاشتراكية سياسة من أجل الطبيعة؟ قراءة بيئية لكارل بولاني".

٥٤. نعود هنا إلى السؤال الذي طرحه:

Naomi KLEIN, *Tout peut changer. Capitalisme et changement climatique*, Actes Sud, Arles, 2015.

"كل شيء يمكن أن يتغير. الرأسمالية والتغير المناخي"، في محاولةٍ لفهم السبب وراء تغير الأشياء على نحوٍ ضئيل بسبب استقرار المعالِم السياسية ـ وخاصة بسبب الدهشة التي أحدثتها مفردة رأسمالية.

٥٥. أو أنهم لا يتمكنون من الخروج من إطار نموذج يطبّع المسألة من جديد. وتلك هي مشكلة كل استعارة بيولوجية مثل "التمثيل الغذائي". ومن هنا تنبع أهمية

تناول العودة إلى جذور مفاهيم الطبيعة للتأكد من أنها لن تطفئ السياسة المراد تحديدًا إحياؤها. انظر:

Jason MOORE, *Capitalism in the Web of Life: Ecology and the Accumulation of Capital*, Verso, New York, 2015,

"الرأسمالية في شبكة الحياة: علم البيئة وتراكم رأس المال"، يكرر عنوان الكتاب المشكلة التي نحاول هنا الإحاطة بها.

56. Timothy MITCHELL, *Carbon Democracy. Le pouvoir politique à l'ère du pétrole* (trad. Christophe Jacquet), La Découverte, Paris, 2013.

"ديموقراطية الفحم. القوة السياسية في عصر النفط" (الترجمة الفرنسية).

٥٧. يقدم هاجس ترامب بالعودة إلى الفحم (ملك الفحم «King Coal») نموذجًا شبه مثالي على الجغرافيا السياسية الجديدة: حلم بيوتوبيا يلفها الدخان بما تستبعه من علاقات اجتماعية، في أرضٍ لم تعد موجودة وفي فترةٍ تجاوزها الزمن بخمسين عامًا.

٥٨. أستعير التناقض الذي استخدمه:

Michel LUSSAULT, *De la lutte des classes à la lutte des places*, Fayard, Paris, 2009,

"من صراع الطبقات إلى النضال من أجل الأماكن"، ولكن بمعنى مختلف بعض الشيء كما سنرى لاحقًا. أدرك أن مصطلح "جيواجتماعي" يحافظ على هذه الثنائية، ويضع كل الجهد المبذول على عاتق الشَرْطَة التي تربط بين جزئي الكلمة. هذه هي حالة يتعين فيها وضع النبيذ الجديد في زجاجات قديمة.

٥٩. مذكور في: reporterre.net/Nous-ne-defendons-pas- la-nature. تاريخ زيارة الموقع ٧ أغسطس ٢٠١٧.

60. Bruno LATOUR, *Politiques de la nature. Comment faire entrer les sciences en démocratie*, La Découverte, Paris, 1999.

"سياسات الطبيعة، كيف يمكن إدخال العلوم في الديمقراطية".

٦١. إن كل ما يعنى به الإنتاج الفكري لتيموثي ميتشل ("ديمقراطية الفحم"، السابق ذكره) هو فهم هذا الانعكاس والتحول من علم الحدود إلى علم اللامحدد.

٦٢. أن يترك المرء لأحفاده عالمًا أقل سكانًا من ذلك الذي وُلد فيه، أن يعيش مع فكرة أنه معرض للانقراض السادس، تلك هي بعض المخاوف التي تضفي طابعًا تراجيديًا على القضايا البيئية.

٦٣. مصطلح أورده «Edmond Husserl». يشير موضوع العالم اللانهائي إلى الكتاب الكلاسيكي:

Alexandre KOYRÉ, *Du monde clos à l'univers infini*, Gallimard, Paris, 1962.

"من العالم المغلق إلى الكون اللانهائي".

٦٤. انظر الكتاب الرائع الصادر في ثلاثة أجزاء عن دار Seuil، تحت إشراف «Dominique Pestre»:

("تاريخ العلوم والمعارف" *L'Histoire des sciences et des savoirs*)
الذي تمكن من تقديم سردية تاريخية ومن تحديد موقعهم الجغرافي لمتجي العالمية.

65. Isabelle STENGERS, *L'Invention des sciences modernes*, La Découverte, Paris, 1993.

"اختراع العلوم الحديثة".

66. Isabelle STENGERS, *La Vierge et le Neutrino*, Paris, Les Empêcheurs de penser en rond, Paris, 2005.

"العذراء والنيوترينو"، وراجع على وجه الخصوص الملحق.

٦٧. تنشأ المفارقة من أن الآلة لا تخضع البتة إلى مبادئ الميكانيكا، التي تظل شكلاً من المثالية، وقد طوّر هذا الموضوع:
Georges SIMONDON, *Du mode d'existence des objets techniques*, Aubier, Paris, 1958.

"عن نمط وجود الأدوات التقنية".

٦٨. ألقت الدراسة التي قام بها «Didier Debaise» الضوء بشكلٍ خاص على التاريخ الفلسفي لهذا التشعب:
Didier DEBAISE, *L'Appât des possibles. Reprise de Whitehead*, Presses du Réel, Dijon, 2015.
"غواية الممكن: العودة إلى وايتهيد «Whitehead»".

٦٩. ذلك هو مصدر العنوان الذي غالبًا ما يساء فهمه لـ:
Émilie HACHE (dir.), *De l'univers clos au monde infini, op. cit.*
"من الكون المغلق إلى العالم اللانهائي"، السابق ذكره. إن العالم لا نهائي بسبب طبقاته؛ لا نهائي مقارنةً بالكون الذي بالرغم من اتساعه يبدو مغلقًا.

٧٠. صار لمفردة نصير الطبيعة «naturaliste» من الآن فصاعدًا تعريفًا معياريًا في:
Philippe DESCOLA, *Par-delà nature et culture*, Gallimard, Paris, 2005.
"ما وراء الطبيعة والثقافة".

71. Silvia FEDERICI, *Caliban et la sorcière. Femmes, corps et accumulation primitive*, Entremonde, Marseille, 2014, et le recueil déjà cité d'Émilie Hache

"كاليبان والساحرة. نساء، أجساد وتراكم بدائي"؛ فضلاً عن مجموعة الدراسات السابق ذكرها لـ «Émilie Hache».

٧٢. ذلك هو هاجس الفكر الرجعي حول مخاطر الهجرات التي تستبدل السكان الأصليين بمستوطنين وافدين. ومثل كل الهواجس، فذلك الهاجس يرمز إلى وجود ظاهرة أخرى ويحل محلها، استبدال كبير آخر: تغيير التربة.

٧٣. من هنا يتبدّى الجهد الساعي إلى إظهار التناقض بين الكوكب والأرضي بفضل رسم الخرائط، مثلما هو الحال في المشروع الذي يصدر قريبًا لـ:

Frédérique AIT-TOUATI, Alexandra ARÈNES et Axelle GRÉGOIRE, *Terra Forma*.

"شكل الأرض".

٧٤. من هنا تأتي اهمية الجزء الثاني من كتاب ديسكولا «Descola» السابق ذكره حول انماط هذه العلاقة، التي يتم التعليق عليها بصورةٍ أقل من الأولى، لا سيما المقاطع التي تتعرض للإنتاج.

٧٥. تغيير مفاجئ لوجهة النظر يجعلنا نقرأ بنهم كل من:

Nastassja MARTIN, *Les Âmes sauvages. Face à l'Occident, la résistance d'un peuple d'Alaska*, La Découverte, Paris, 2016,

"الأرواح المتوحشة. في مواجهة الغرب، مقاومة شعب الاسكا"، والكتاب الساحر لـ:

Anna LOWENHAUPT TSING, *Le Champignon de la fin du monde*, *op. cit.*

و"فطر نهاية العالم"، السابق ذكره.

76. Sébastien DUTREUIL, *Gaïa : Hypothèse, programme de recherche pour le système terre, ou philosophie de la nature?*, Paris, Thèse de doctorat, université de Paris-I, 2016.

"فرضية جايا، برنامج البحث عن النظام الأرضي، أو فلسفة الطبيعة"؟ رسالة دكتوراه، جامعة باريس-١، وستصدر قريبًا عن دار نشر La Découverte.

انظر أيضًا كتابَي كلاً من برونو لاتور، "في مواجهة جايا"، و"تيموثي لينيتون"، "نظام الأرض"، السابق ذكرهما.

77. James E. LOVELOCK, *La Terre est un être vivant. L'hypothèse Gaïa*, Flammarion Champs, Paris, 1999.

"الأرض كائن حي، فرضية جايا".

٧٨. إن إعادة الاعتبار لأليكساندر فون هومبولدت «Alexander von Humboldt» هو أحد أعراض هذا التحول إلى صياغة جديدة لمفهوم علوم الأرض. راجع أحد الكتب الأكثر مبيعًا لـ:

Andrea WULF, *The Invention of Nature: Alexander von Humboldt's New World*, Knopf, New York, 2015.

"اختراع الطبيعة: العالم الجديد لأليكساندر فون همبولدت".

٧٩. هذا النمط من الانتقال الآني المجازي يظهر بوضوح في الحجج المقدمة في:

Deborah DANOWSKI et EDUARDO VIVIEROS DE CASTRO, «L'arrêt du monde», *in* Émilie HACHE, *De l'univers clos au monde infini, op. cit.*

"توقف العالم"، في كتاب "من الكون المغلق إلى العالم اللانهائي"، السابق ذكره.

٨٠. تستخدم شبكة من الباحثين في علوم الأرض هذا المصطلح لمقارنة المواقع المجهزة -غالبًا أحواض- من خلال الجمع بين نتائج التخصصات التي كانت تعمل حتى تلك اللحظة بصورةٍ منفصلة. يشير مصطلح المنطقة الحرجة في صيغة المفرد إلى القشرة الرقيقة التي أحدثت الحياة فيها تغييرًا جذريًا في الغلاف الجوي والجيولوجيا، على عكس إما الفضاء الممتد فيما وراءها، إما الجيوليوجيا العميقة أدناها.

٨١. يقوم جزء كبير من أعمال "إيزابيل ستينجرز" بمحاولة إبطاء عملية الاستبعاد تلك، دون التقليل من أهمية العلوم: هذا هو ما تسميه "مديَّنة". انظر الدراسة الصادرة مؤخرًا:

Isabelle STENGERS, *Civiliser la modernité? Whitehead et les ruminations du sens commun*, Les Presses du Réel, Dijon, 2017.

"مديَّنة الحداثة.. وايتهيد وتأملات الحس المشترك".

82. Edwin ZACCAI, François GEMENNE et Jean-Michel DECROLY, *Controverses climatiques, sciences et politiques*, Presses de Sciences Po, Paris, 2012.

"جدالات مناخية، علوم وسياسات".

تم الترويج لفكرة الإنتاج الفعال للجهل وتطبيقه على حالة التبغ من قِبَل:

Robert N. PROCTOR, *Golden Holocaust. La conspiration des industriels du tabac* (trad. Matthias Girel), Éditions des Équateurs, Paris, 2014.

"الهولوكوست الذهبي. مؤامرة مصنعي التبغ" (الترجمة الفرنسية).

٨٣. "لقد عرضت المسألة الشيوعية بطريقة سيئة، إذ تم عرضها أولاً باعتبارها مسألة اجتماعية: اي مسألة إنسانية بحتة. ومع ذلك، لم تكف عن إثارة العالم" "اللجنة غير المرئية" من كتاب "الآن"، ص. ١٢٧.

84. Will STEFFEN *et alii*, «Planetary boundaries: Guiding human development on a changing planet», *Science Express*, 2015.

"حواجز الكوكب: إرشاد التطور البشري في كوكبٍ متغير".

٨٥. إن أسطورة الجمهوريين الأمريكيين التي تعتبر أن علم المناخ مؤامرة اشتراكية أو صينية تسعى للهيمنة على الولايات المتحدة، تقدم صورة واضحة تمامًا لهذه السلطة المعترف بها باعتبارها سلطة متعمدة وجيوسياسية بشكلٍ مباشر. وهو ما يعني أنه بالرغم من كل شيء، فإن أنصار الواقع البديل قادرون على القيام بتحديد الواقع الذي يواجهونه بدقة كافية.

86. Clive HAMILTON, *Defiant Earth*, *op. cit.*

"تحدي الأرض"، السابق ذكره.

٨٧. إن نجاح الأعمال التي تكشف فعالية كائنات مختلفة مثل الغابات، البكتيريا المعوية، الشامبانزي، الفطريات أو التربة، تشهد على هذا التحول الكبير فيما يتعلق بتعريف ما يعمل بشكل مؤثر. هذا هو تحول النموذج الذي بدأته "فانسيان ديسبريه". انظر بشكل خاص:

Vinciane DESPRET, *Que diraient les animaux si on leur posait les bonnes questions?*, La Découverte/Les Empêcheurs de penser en rond, Paris, 2012.

"ماذا يمكن أن تقوله الحيوانات لو طُرحت عليها الأسئلة الصحيحة"؟

٨٨. من هنا تنبع أهمية فلسفة الكائن الحي، التي طورها "وايتهيد"، ثم قامت بتجديد طرحها:

Isabelle STENGERS, *Penser avec Whitehead. Une libre et sauvage création de concepts*, Seuil, Paris, 2002.

"التفكير مع ويتهيد. إنشاء حُر وبريّ للمفاهيم".

٨٩. هذا المصطلح مقترح من جانب:

Emanuele COCCIA, *La Vie des plantes. Une métaphysique du mélange*, Payot, Paris, 2016.

"حياة النباتات. ميتافيزيقا أساسها الخلط".

90. Michel CALLON, *L'Emprise des marchés. Comprendre leur fonctionnement pour pouvoir les changer*, La Découverte, Paris 2017.

"قوة الأسواق، فهم سير عملها من أجل تغييرها".

91. Karl POLANYI, *La Grande Transformation, op.cit.*

"التغيير الكبير"، السابق ذكره.

٩٢. توجد هنا، بمعنى من المعاني، الكلمة القديمة "قانون" كما كان مونتيسكيو يعنيها، من خلال ربطه إياها، على نحو صريح تمامًا، بمفهوم "المناخ"، مصطلح أسيء فهمه طويلاً، حتى بدأ النظام المناخي الجديد، الذي يجعل لزامًا كتابة شيء مثل روح قوانين الطبيعة. أنا مدين لجيرار دو فري « Gérard de Vries» على تفسيره لمونتيسكيو.

٩٣. من هنا الشعور بغرابة أن يُرى ماكرون وترامب يلقيان معًا التحية على موكب عسكري في الشانزليزيه، في ١٤ يوليو ٢٠١٧.

٩٤. مثل ما قام به العديد من الناس بعد مشاهدتهم الفيلم الوثائقي "غدًا":
Cyril DION et Mélanie LAURENT, *Demain*, 2015.

٩٥. إن نص "لجنة غير مرئية"، في كتاب "الآن" (السابق ذكره)، هو في الوقت ذاته ثوري ومليء بالروحانية المسيحية على نحو غريب، ولا يقدم إلا استنتاجًا عمليًا مفاده "هزيمة الشرطي" من أجل شغل الصفوف الأولى من التظاهرات.

٩٦. نتذكر أنه من المدهش أن مشروع:
Michael HART et Tony NEGRI, *Empire*, UGE, Paris, 2004.
"امبراطورية"، كان ينتهي بالإشادة بـ «Françoise d'Assise».

97. STARHAWK, *Parcours d'une altermondialiste. De Seattle aux Twin Towers* (trad. d'Isabelle Stengers et Édith Rubinstein), Les Empêcheurs de penser en rond, Paris, 2004.

"مسار مناصرة للعولمة البديلة، من سياتل إلى البرجين التوأمين" (الترجمة الفرنسية).

٩٨. تجدر الإشارة إلى المشروع الرائع لـ «Marc Robert» وفريقه، انظر مقال:
Heng RAO, Luciana C. SCHMIDT, Julien BONIN et Marc ROBERT «Visible-light driven methane formation from CO_2 with a molecular iron catalyst», *Nature*, 17 juillet 2017.
"انبعاث الضوء المرئي من غاز الميثان الناتج عن تفاعل ثاني أوكسيد الكربون مع محفز جزيئية من الفولاذ"، في مجلة "طبيعة".

٩٩. حسب مشروع:

Baptiste MORIZOT, *Les Diplomates. Cohabiter avec les loups sur une nouvelle carte du vivant*, Éditions Wildproject, Marseille, 2016.

"الديبلوماسيون. التعايش مع الذهاب على خريطة جديدة للكائن الحي".

١٠٠. انظر:

Marie CORNU, Fabienne ORSI et Judith ROCHFELD (dir.), *Dictionnaire des biens communs*, PUF, Paris, 2017.

"قاموس الثروة الجمعية".

101. Hannah LANDECKER, « Antibiotic resistance and the biology of history », *Body and Society*, 2015, p. 1-34.

"مقاومة المضاد الحيوي وبيولوجيا التاريخ" في كتاب "الجسد والمجتمع". أشكر شارلوت بريفز التي عرفتني بهذا المقال المذهل.

102. Donna HARAWAY, *Manifeste des espèces de compagnie* (trad. de Jérôme Hansen), Éditions de l'Éclat, Paris, 2010.

"بيان رفاق الدرب" (الترجمة الفرنسية).

١٠٣. أشكر المشاركين في الاستكشافات التمهيدية التي أجريت في مناطق "ميل" «Mielle»، "شاتلبورون" «Chateleperron» و"ودومبيير-سير-بسبر" «Dompierre-sur-Besbre»، لتجديد هذا الوصف الخاص بإقليمهم.

104. Philippe GRATEAU, *Les Cahiers de doléances. Une lecture culturelle*, Presses universitaires de Rennes, Rennes, 2001.

"دفاتر الشكاوى، قراءة ثقافية".

105. Dipesh CHAKRABARTY, *Provincialiser l'Europe. La pensée postcoloniale et la différence historique* (trad. d'Olivier Ruchet), Éditions Amsterdam, Paris, 2009.

"تحويل أوربا إلى أقاليم نائية. فكر ما بعد الاستعماري والاختلاف التاريخي" (الترجمة الفرنسية)

106. Peter SLOTERDIJK, *Si l'Europe s'éveille*, Mille et une nuits, Paris, 2003.

"لو استيقظت أوربا".

١٠٧. استُخدم هذا المصطلح بمعنى آخر من قِبَل:

Ulrich BECK, Anthony GIDDENS et Scott LASH, *Reflexive Modernization: Politics, Tradition and Aesthetics in the Modern Social Order*, Stanford University Press, Stanford, 1994.

"التحديث الانعكاسي: سياسات، تقاليد وجماليات في النظام الاجتماعي الحداثي"

١٠٨. هذا ما عبرت عنه أنجيلا ميركل غداة انسحاب ترامب من اتفاقية باريس، في ٢٨ مايو ٢٠١٧: "نحن الأوربيون يجب ان نتولى زمام مصيرنا".



فهرس مختصر


مكتبة
t.me/t_pdf

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ – دجلة – المعادى – القاهرة.

تليفون:٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+

بريد إليكتروني:info@kotobkhan.com

موقع إليكتروني:www.kotobkhan.com



تسعى هذه الدراسة إلى الإحاطة بثلاث ظواهر سبق أن تناولها المحللون دون أن يفلحوا في ملاحظة القاسم المشترك فيما بينها وما تنطوي عليه من طاقة سياسية. أولاً، "رفع الحدود" وهو الأمر الذي أسبغ على مفردة العولمة معنى سلبياً باضطراد. ثانياً، الإنفجار المتزايد لمظاهر اللامساواة. ثالثاً، ظهور نزعة إنكار وجود التغير المناخي، وهذا أمر غالباً ما يتم إغفاله.ثمة فرضية تقول أننا لن نستوعب شيئاً من المواقف السياسية التي ترسخت منذ خمسين عاماً ما لم نمحض أهمية كبيرة لمسألة التغير المناخي وما تواجهه من رفض.

يجري كل شيء، في الواقع، وكأن قسماً كبيراً من الطبقات الحاكمة قد توصلت إلى استنتاج مفاده استحالة التعايش مع بقية سكان كوكب الأرض. وهذا على الأرجح هو ما يفسر تفاقم مظاهر اللامساواة واتساع نطاق إزالة الحدود ونقد العولمة وانبثاق الرغبة المسعورة في العودة إلى كنف الدولة القومية.

للوقوف في وجه هذه النزعات لا بد أن نعثر، أولاً، على مكان نرسو فيه. هنا تكمن أهمية العثور على بوصلة سياسية.

يتطلب الأمر، إذن، القيام برسم ما يشبه خارطة طريق للمواقف التي يفرزها المشهد الجديد، والمضي في إعادة تعريف الحياة العامة وما تتركه من آثار وتحديات.

برونو لاتور، أستاذ متفرغ في كلية العلوم السياسية، ومؤلف كتاب "في مواجهة جايا. ثماني ندوات حول النظام المناخي الجديد" .Face à Gaia
،Huit conférences sur le Nouveau Régime Climatique
الصادر عام ٢٠١٥.